مذاهب الشرق الأوسط

قبل الإسلام وبعده

الجزء الخامس

الحروب الصليبية

أضعف الصراع المذهبي السني الشيعي بلاد الإسلام، وذهب بهيبـة الخلافـة وأطمع الأجنبي على احتلالها.

كانت الكنيسة في روما تحاول جاهدة تنظيم الحملات وتنـسيق الجهـد ضـد المسلمين وحالفت البرابرة "النورمان" الذين هاجما الأندلس مرات عديدة، وكانـت ممالك الشمال المسيحية تتعاظم في قوتها وانتهى الأمر بسقوط طليطلة في قبـضة ألفونس السادس ملك قشتالة وليوهن وفشلت المحاولات لاستردادها وكان ذلك عام 479 هجري= 1086 ميلادي.

ظهرت خلال هذه الفترة شخصية كنسية قوية هي شخصية البابا **أربان الثـاني** وكانت الحملة الصليبية الأولى هي نتيجة دعوته الناجحـة فـي رص الـصفوف وإقامة التحالفات.

تشكل جيش في جنوب فرنسا وعدة جيوش في شمالها، وواحـد فـي جنـوب إيطاليا يقودهم أمراء إقطاعيون أقوياء. وكان هناك عدة وحدات شـعبية يقودهـا أمراء شعبيون. وكان أكبر هذه الجيوش الإقليمية بقيادة **ريموند** القوي الفتي، كونت طولوز وبرفقته **أدهمار دي مونتيل** أسقف ليبوي ومندوب البابا. وكـان طمـوح ريموند أن يكون القائد العسكري للصليبيين، وهو داعية بإمرة مندوب البابا. وقاد قوات الشمال **روبرت الثاني كرتوز** دوق نورماندي، **وجود فري دي بويون** دوق اللورين الأدنى **وروبرت الثاني** كونت الفلاندرز **وستيفن هنري** كونت بلوا، **وهوج** كونت فرماندوا.

وقاد جيش جنوب إيطاليا **بوهموند إبن روبرت جسكار**، وكان جيشه صـغيرا ولكن ممتازا. ولم يكن هؤلاء القواد يتلقون الأوامر من ريموند، أو من واحد منهم. وكان واضحا أن مندوب البابا كان يجد صعوبة في ضبطهم.

وصلت قوات الصليبيين إلى القسطنطينية على فترات (من تموز 1096 إلـى أيار 1097) ميلادي= 490-491 هجري وقد عبر جو وفري هنغاريا وريمونـد

ولماشيا وآخرون أتوا عبر إيطاليا وألبانيا. وتلقى **الكسيوس كومنينوس** إمبراطور بيزنطة محاربين سيئي التنظيم بدل جيش منظم، يضاف اليهم حجاج ورجال دين وغيرهم من غير المحاربين، وهم بإمرة قواد لا يستطيعون السيطرة عليهم. وفشل **بوهمند** الذي كان برفقة والده جسكار في غزوة خطيرة على ممتلكات الكسيوس في ألبانيا أن يقنعه بجعله نائبا إمبراطوريا عنه على الأراضي التي سيحتلها الصليبيون في الشرق. فالتجأ إلى أمراء الفرنجة وجعلهم يقسمون على أن يعيدوا إليه كل الأراضي التي احتلها الترك منه، وهذا يعني عودة الأناضول إليه ومدينة أنطاكية. ووافق الأمراء بدرجات متفاوتة من الحماس والرغبة. وقد ارتاب ريموند بهذا القسم واشترط أن لا يصاب شرف الكسيوس أو حياته بأذى.

وما كان الفرنجة والبيزنطيون يبدؤون رحلتهم عبر آسيا الصغرى حتى ثار سخط الفرنجة لأن الإمبراطور البيزنطي أراد أن يدخل نيقايا بعد أن استسلمت في 491 هجري= 1097 ميلادي لمنع الجنود الفرنجة من نهبها. وقد صعد تصرفه كرههم الغريزي لليونان الذين كانت طقوس ديانتهم مختلفة ومستواهم الثقافي أعلى. وبعد أن هزم الصليبيون جيشا تركيا سلجوقيا في دوريلايوم (قرب اسكشير) تحركوا عبر مرتفعات الأناضول، فعاد الكسيوس إلى ممتلكاته مرسلا قوة رمزية مع الصليبيين. ولم يلبث بودوين أخو جودفري أن انتزع نفسه من الجيش ونصب نفسه حاكم أوديسا الأرمنية (الرها)* على الفرات الأعلى 491 هجري= 1097 ميلادي. وقد استفاد من الفوضى والحسد الذي أدى إلى اقتتال أمراء وحكام السلاجقة عند موت ملكشاه. وقوي وضعه بفضل نزاعات أمراء الفرنجة وقرار الكسيوس أن يحتل من الأناضول بقدر ما يستطيع وأن لا يتقدم إلى أنطاكية إلا في الربيع فاستطاع أن يحتفظ بها حتى 493 هجري= 1098 ميلادي.

وحين تحرك ألكسيوس نحو أنطاكية وصلته الأخبار أن أتابك الموصل كاربوجيا في طريقه لتخليص أنطاكية فارتد على عقبيه وخسر بذلك ما بقي له من مصداقية أمام الفرنج. وكان بوهمند خلال أيار من عام 1098 ميلادي قد حصل

* أو أورفة من أور مدينة كلدانية يسكنها عرب نساطرة وأرمن. كانت تحت حكم الحمدانيين العرب ثم السلاجقة المسلمين.

على وعد من معظم قواد الحملة بأن من يحتل أنطاكية تصبح لـه إذا لـم يـصل ألكسيوس. ولكن ريموند الذي كان على علم برغبة البابا ليكون على علاقات طيبة مع البيزنطيين لم يوافق على ذلك. ورغم ذلك قام بوهمند بمفاوضات سرية لتسليم أنطاكية له وكان ذلك في (3 حزيران 1098ميلادي) ووصل كاربوجيـا فـي (5 حزيران) فأصبح المحاصِرون محاصَرين. واستطاع بوهمنـد أن يهـزم قـوات كاربوجيا ويحتلها**

أصبح مستقبل أنطاكية معلقا بين بوهمند الذي يحتل معظم المدينـة وريمونـد. وتأخر زحف الصليبيين بضعة أشهر، وأخيرا نفذ صبر القوات، وأجبروا الأمراء على أن يتقدموا إلى الضريح المقدس في (تشرين الثاني 1098 ميلادي) وقد رجع بوهمند لتوه بعد عيد الميلاد وطرد الحراس الذين تركهم ريموند فـي أنطاكيـة. فأصبحت المدينة بأسرها ملكه. وأسس بذلك ثاني دولة فرنجية في الـشرق بعـد الرها. ووسع شقة الخلاف مع اليونان الذين كان البابا يأمل في كسب ودهم.

وبعد تأخر طويل حول أنطاكية أنجزت الرحلة إلـى القـدس. وكـان الحكـام المسلمون على طول الساحل السوري ومعظمهم شيعة الخلافة الفاطمية في القاهرة على استعداد تام ليزودوا الفرنج بالمؤن والطعام لقاء الأمن. ولكن حـين وصـل الصليبيون إلى القدس في (7حزيران 1099ميلادي)= 493 هجري جابهوا مقاومة شديدة، فالقدس مدينة مقدسة عند المسلمين. وكانت الحكومة الفاطمية الشيعية قـد استولت على المدينة قبل عام منتهزة فرصة انشغال الترك الـسلاجقة بمحاربـة الصليبيين وقررت الدفاع عنها. ومع هذا فإن الصليبيين احتلوا القدس عنوة وقاموا بمذبحة رهيبة للمسلمين واليهود وقتلوا 70 ألفا. واستردوا الضريح المقدس[1]

بعد إخضاع أنطاكية تحركت القوات لتقف طويلا أمام معرة النعمان ثم "كفـر طاب" ومصياف حيث عقد أميرها صلحا مع الفرنج الذين تـابعوا تقـدمهم إلـى اللاذقية فطرابلس. وفي النهاية وصلت القوات إلى القدس وبدأت حصارها فـي 7 حزيران 1099 ميلادي، وهو الحصار الذي استمر حتى 14 تموز حيث سـقطت المدينة بيد الفرنج بعد صراع مرير. وعندما دخل الفرنج القدس ولّى المـسلمون

** بقي الصليبيون فيها من 1098- 1268م أي 150 سنة.

نحو الحرم الشريف حيث المسجد الأقصى وقبة الـصخرة. إلا أن جنـد الفـرنج انقضوا عليهم وأخذوا يعيثون فسادا ويدمرون وينهبون ويذبحون، ولم يـنج مـن المسلمين بحياتهم إلا القليل. وزاد جنون الفرنج بانتصارهم الكبير وانطلقـوا فـي شوارع المدينة وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز واستمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة مـن الـصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه. وحينما توجه قائد القوة "**ريموند أجيـل**" فـي الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التـي بلغـت ركبتيه. وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم. ولـيس معروفـا بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة مـن سـكانها المـسلمين واليهود، بل إن كثيرا من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث. ولما سعى، فيما بعد، بعض عقلاء اللاتين أن يجدوا أساسا يستطيعون من خلاله التعاون بين المـسلمين والمسيحيين كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض الوصول إلى الاتفاق.[2]

مع احتلال القدس كانت عملية تأسيس الحكومة هي المهمـة التاليـة. واختيـر جودفري دي بويون "حاميا" للضريح المقدس. فلقد كانت رغبة رجـال الـدين أن تكون القدس دولة كنسية وليست دولة ملكية. أما الشؤون الدنيوية والإقطاعية فقـد اختير لها أرنولف كبطريك، وأبعد البطريك اليوناني. وما لبث أن أبعد أرنولـف عندما قدم **مطران بيزا دمبير** في كانون أول 1099 مـيلادي متظـاهرا بإقامـة الشعائر الدينية عند القبر المقدس، ولعب المطران على جودفري الذي كان بحاجة لمساندة بحرية بيزا، حتى يحتل الموانئ الفلسطينية، ليعمل على تنصيبه بطريكـا على القدس. وبذلك أصبح السلطان الإقطاعي لكلا بوهمند وجودفري. وقد ارتـاح لهذا الأمر بوهمند الذي عاد إلى أنطاكية ومعه موافقة الكنيسة اللاتينية لاغتصاب أنطاكية من اليونان، ولكن جودفري كان ضحية المكيدة. وحاول دمبير أن يجمـع سلطة الكنيسة والدولة في القدس وتجاهل جودفري، وحاول إغراءه بتسليم المدينة إليه. ومات جودفري في حزيران 1100 ميلادي قبل أن يحدث صدام مكشوف.

واستدعي أرنولف وجماعة آخرون بولدوين، أخا جودفري من الرها، فـأجبر دمبير على أن ينصبه ملكا على بيت لحم في يوم عيد المـيلاد 1100 مـيلادي. وخطوة فخطوة عزل أخو جودفري دمبير وطرده من المدينة. وحـاول أرنولـف الذي أصبح بطريكا على القدس عام 1112 ميلادي أن يكبح من تطلعاته لترسـيخ الملكية، ولكن الملكية الإقطاعية انتصرت في النهاية على الدولة الأكليركية.

وأُقيمت ثلاث دول مسيحية لاتينية في الشرق إلى جانب القدس وهي:

دوقية الرها، وإمارة أنطاكية، ودوقية طرابلس (احتلـت بـين 1102 و 1109 ميلادي من قبل جماعة ريموند كونت طولوز) وكانت الحكومة في الدول الـثلاث إقطاعية شبيهة بما قام في القدس.

كان الملك ينتخب بواسطة مجلس إقطاعي ملكي. والمستعمرات الإيطالية فـي الموانئ كان لها حقوق مستقلة في أراض إضافية تابعة لها. وكانت تقطـع هـذه الأراضي مقابل ما تقدمه أساطيلها من مساعدة في احتلال هذه المـوانئ. وكـان هناك نظام الفرسان العسكري التمبلار، والأوسبتال، والتيوتون في وقت لاحـق. وهؤلاء الفرسان كانوا يقومون بحماية الحصون الكبرى التـي تحـرس الحـدود ويتمتعون بقدر كبير من الاستقلالية.

وبالرغم من هذه المحدوديات لسلطة ملك القدس فإنه كان باستطاعته أن ينتزع قوة كبرى لو كان رجلا قديرا. فإن ممتلكاته كانت تـستطيع أن تدعمـه بخُمـس فرسان المملكة. وتحت إمرته جميع القوات المسلحة زمن الحرب، وضمن سلطاته اختيار البطاركة وكبار رجال الكنيسة. وإلى هذا فإن حمايته للقـدس والـضريح المقدس كانت تعطيه مزايا كبيرة إذ كان بوسعه المطالبة بالقيادة المعنويـة لـدول اللاتين الثلاث الأخرى ويستطيع ممارستها. وكان بولدوين الأول في الواقع سلطانا على إمارتي الرها وطرابلس. وكانت القدس تلقى بالغ الاهتمام من الغرب ومـن البابا، وإليها يصل الحجاج والصليبيون الجدد والمال. ومن خلال البابا كان بوسع الملك ممارسة سيطرته على الدول الثلاث، وعلى القادة الكبـار للجـيش وعلـى البطريك.

وفيما عدا الرها كانت دول الصليبيين تقع على طول الشاطئ. وبما أن هذه الموانئ كانت تزود باستمرار من أوروبا، فقد كانت الحاجة لا تنقطع إلى استمرار الحملات الصليبية والتبشير بها. ولم تكن الطبقة الحاكمة في الدول اللاتينية الأربع لتزيد عن (2000- 3000) نبيل ورجل دين أوروبي ومعظمهم من أصل فرنسي ويتكلمون الفرنسية. وكانوا يحكمون جمهورا متنافرا من المسلمين والمسيحيين. الأغلبية المسلمة في القدس، والأغلبية المسيحية في الشمال (الرها وأنطاكية) وكان الريف منقسما إلى إقطاعيات يقوم على زراعتها فلاحون مواطنون. أما الموانئ فكانت تغص بتجار وحرفيين من أهل البلاد، وبحارة وتجار من أهل جنوة وبيزا والبندقية (على أراضيهم التي يتملكونها في الشرق ويقيمون فيها الأسواق)

وفي زمن السلم كان التجار المسلمون القادمون من الداخل يلقون الترحيب. فسرعان ما تبنى الفرنج أسلوب التسامح نحو المسلمين وطرقهم التي كانت تثير الدهشة لدى الحجاج والصليبيين القادمين من حديثا من أوروبا.

ولما استقر الفرنج في الشرق واجهوا مشكلة ديمومتهم بين الدول الإسلامية. وكان الكثير في صالحهم. فالخلفاء العباسيون في بغداد والسلاجقة الأتراك كانوا لاهين بشؤونهم عن سوريا وفلسطين، والشام تقع في هامش اهتماماتهم. لم يعتبروا دول الصليبيين خطرة ولم يحاولوا أن يطردوا الفرنج. وهكذا كان موقف الخلافة الفاطمية إلى حد بعيد. فبعد هجوم فاشل على فرنجة القدس في 1105 ميلادي= 499 هجري عاد الوزير الأفضل إلى مصر وانتهج سياسة مسالمة. وفي سوريا كان النزاع مستشريا بين حكام حلب ودمشق الأتراك. وفي أحيان أخرى كانوا مستعدين لمحالفة الفرنج ضد بعضهم بعضا. وفي مثل هذه الظروف كانت السياسة الأحكم للفرنج أن يتعايشوا مع جيرانهم الذين يرغبون بالتسامح معهم دون إثارة داعي الجهاد والحرب المقدسة ضدهم أو السماح بوحدة الدول الإسلامية بكل تأكيد.[3]

تابع الفرنج حروبهم التوسعية وتم تقسيم البلاد إلى إمارات (دوقيات) فكانت مملكة بيت المقدس تمتد من حمص إلى شمال لبنان، وتتبعها إمارة طرابلس وإمارة الكرك. أما في الشمال فكانت هناك إمارة الرها وإمارة أنطاكية بالإضافة

إلى إمارات مستقلة مثل بيت قيسارية وصيدا، وإمارة تبنين وإمارة نابلس والرملة وإبلين وبيروت.

لم يتوقف الصراع بين المسامين والفرنج، رغم قيام الإمارات الصليبية واستقرارها فكان الصليبيون يحاولون باستمرار توسيع إماراتهم، مما كان يدفعهم للاصطدام بإمارات دمشق وحمص وحلب. ورغم التمزق الذي كان يباعد بين أمراء السلاجقة، إلا أنهم كثيرا ما كانوا يتعاونون لمجابهة هجمات الجيوش الصليبية وفي الوقت ذاته كان أمراء السلاجقة ينظمون الهجمات ضد الإمارات الصليبية في محاولات لإضعاف هذه الإمارات وإرغامها على الانسحاب. ومثال ذلك ما حدث في سنة 497 هجري= 1104 ميلادي، عندما تجاوز سغمان ماردين وجكرش في الموصل خلافاتهما واتحدا لتوجيه حملة ضد الرها[4]

الحملة الصليبية الثانية

كان لسقوط الرها وقعا أليما في غرب أوروبا وتنادى البابا **أوجينوس الثاني** لحمل السلاح في الحملة الصليبية الثانية فأخذ لويس السابع ملك فرنسا الملقب بالتقي الصليب. وكذلك فعل كونراد الثالث الألماني وغادرا في ربيع 1147 ميلادي= 439 هجري مخترقين هنغاريا. وكان كونراد هو السابق فلما وصل جيشه إلى آسيا الصغرى كمن له الأتراك قرب دوريلايمو في تشرين الأول 1147 ميلادي= 439 هجري ودمروه وقاسى جيش لويس المصير نفسه قرب لاوديسيا في بيزيديا في يناير 1148 ميلادي= 440 هجري.

كان الأرمن كما أسلفنا قد بنوا مستعمرات لهم في كيليكيا منذ القرن العاشر ووسعوا ممتلكاتهم على حساب البيزنطيين بعد الهجرة التي حدثت إثر معركة ملاذبكر عام 1071 ميلادي= 464 هجري. وقد لعبت أرمينيا الصغرى دورا هاما في تجارة أهل البندقية وجنوة مع الشرق بعد الحملة الصليبية الأولى، وأصبح ميناء اسكندرون ينافس الإسكندرية[5].

لم يلق الصليبيون لذلك مقاومة في جنوب تركيا في الحملة الصليبية الثانية، ولما جاء الربيع استمر الملكان في مسيرتهما بقواتهما الصغيرة بطريق البحر. وصل لويس إلى أنطاكية وكونراد إلى عكا. وفي أنطاكية حاول ريموند أن يغوي

لويس على مهاجمة حلب القاعدة الرئيسية لنور الدين شمال سوريا. وكانت هـذه أفضل نصيحة عسكرية لاسترداد الرها التي كان المسلمون قـد حرروهـا مـن الاحتلال الصليبي وكان سقوطها في أيديهم سببا في الحملة الثانية. ولكـن لـويس كان مصمما على أن يصل إلى الضريح المقدس. وبعد أن أقام لـويس زكـونراد الشعاءر الدينية عند الضريح قررا مع فرنجة القدس أن يهاجما دمشق. ولم يكـن الدافع لهذا إلا رغبة في الحصول على إقطاعيات غنية، ولم يعبآ بواقع أن دمـشق تحمي القدس والدول الصليبية الأخرى من نور الدين الذي كان يبذل جهودا كبيرة للاستيلاء عليها ودفعها في طريق الجهاد. وهاجم الغزاة الصليبيون دمـشق مـن الجنوب ثم من الشرق وحاصروها ثلاثة أيام، ونفذ الماء لـديهم وقامـت بيـنهم مناقشات حامية. ونتيجة لهذا هجروا المدينة بعد حصار دام أربعة أيام ورحلوا في 28 تموز 1148 ميلادي= 542 هجري.

وكانت نتيجة الحملة الصليبية الثانية أن الصليبيين بعد نـشوة النـصر التـي استمتعوا بها في الحملة الأولى فقدوا الهيبة أمام الأتراك بعد الحملة الثانية. واشتد الحقد في أوروبا ضد البيزنطيين الذين اعتبروا مسؤولين عن كوارث الأناضـول. أما في دمشق فقد بدأ الناس الذين تعاونوا مع الفرنج يتساءلون عن جـدوى هـذا، وأخذوا يناصرون نور الدين وسياسة الجهاد ضد الصليبيين.

منجزات نور الدين وظهور صلاح الدين الأيوبي

استمر نور الدين بعد الحملة الصليبية الثانيـة فـي رص صـفوف المـسلمين وتوحيدهم لطرد الأوروبيين من مصر وسوريا. ففي 1149 ميلادي= 577 هجري هزم وقتل ريموند أمير أنطاكية في عناب. وكان نصره المؤزر قد جعل منه بطل المسلمين السنّة. وعمل على تنمية هذه المشاعر، ورعى الجوامع والمدارس التـي تعلم ضرورة الوحدة للمسلمين مما جعل من الصعب على نظام الحكم في دمـشق أن ينتهج سياسة التعاون مع الفرنج. وكان نور الدين يقوم بحملاته السنوية علـى دمشق كاسبا قواته من النهب والسلب، معلنا أنه حام للإسلام، ومحاولا أن يجلـل الحكومة في دمشق بالخزي والعار.

في 1153 ميلادي= 549 هجري احتل بولدوين الثالث ملك القدس من 1143- 1163 ميلادي عسقلان وهي حصن مصري على بعد أربعين ميلا جنوب غـرب القدس. وبالرغم أن الخليفة الفاطمي كان شيعيا فإن سقوط عسقلان استفز مشاعر المسلمين السنة في دمشق إلى أبعد مدى. وفي العام التالي عند ظهور نور الـدين أمام دمشق فتحت المدينة أبوابها دون حرب، وأصبحت سوريا المـسلمة موحـدة الآن ضد الفرنج.

تمركزت الأحداث للسيطرة على مصر ودفعها في طريـق الجهـاد، فـوزراء الخلافة الفاطمية كانوا يتبعون منذ 1105 ميلادي= 499 هجري سياسة المسالمة. فكان من الضروري أن يسيطر نور الدين على مصر حتى يحيط بالفرنج. وكـان على الغزاة الصليبيين أن يتدخلوا في مصر ليمنعوا هذا الأمر. إن أمالريك الأول، ملك القدس، استفاد من الانقسامات في بلاط القاهرة وفي جيشها ليغزوا الدلتا فـي الأعوام 1163 و 1164 و 1167 و 1168 ميلادي وفي كل مرة كان نور الدين يرسل إليه قائدا هو أسد الدين شركوه لدعم الفاطميين. وفي يناير 1169 ميلادي= 565 هجري نجح شيركوه في دخول القاهرة، وأصبح وزيرا للخليفـة الفـاطمي بالرغم أنه سنّي[6] ومات شيركوه بعد شهرين وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

كان بنو أيوب حكاما لتكريـت مـن 1131- 1146 مـيلادي= 526- 541 هجري.

الأكراد

إن سجلات إمبراطوريات ما بين النهرين (سومر وأكد وبابل وآشور) تتضمن إشارات متكررة عن حروب على الحدود الشرقية والشمالية مع قبائل جبليـة لهـا أسماء تشبه الكرد. والأسماء الشخصية في الوثائق المعاصرة تشير إلـى وجـود عناصر هندية آرية في ما بين النهرين منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد. وتبعهم في ذلك الميديون والفرس. فقد وجدت أسماء أمراء ميديين فـي الوثـائق الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد.

إن المناطق التي يعيش فيها الكرد بشكل حصري أو كغالبية هي:

مناطق واسعة في شرقي تركيا، وشمال العراق، وشمال غرب إيران، ومناطق من أرمينيا السوفييتية. والمنطقة التي يعيشون فيها في غرب إيران يحدها من الغـرب العراق ومن الشمال أذربيجان الغربية والشرقية ومن الشرق الجيلان (الديلم) ومن الجنوب كرمنشاه. إن الكورتي أو الكورتيوا الذين ذكرهم بولبيوس حوالي 200-120 قبل الميلاد ربما كانوا أكرادا وأولئك الذين هاجموا **زينوفون** والعشرة آلاف فارس الذين جاء على ذكرهم سترابو وليفي عـام 401 قبـل المـيلاد يـسمون **الكردوشوا**. ومع ذلك فإن الأكراد لم يشكلوا وحدة في تاريخهم ولم يدخلوا الشرق الأوسط محاربين[7] بل كانوا يهاجرون إليها كرعاة ثم يعملون بالزراعة وينخرطون في الجيوش كمحاربين. ولمال انتشر الإسلام دخلوا فيه على مذهب السنّة، وحينما كانت الخلافة العباسية تنشر راياتها كانوا يعتبرون أنفسهم في دارهم مواطنين.

الأيوبيون

كان شادي بن مروان والد كل من نجم الدين أيوب وأسد الدين شـيركوه مـن أكراد بلدة "دويق" الواقعة على حدود إقليم أذربيجان قريبا من "تفلـيس"[8] وغـادر بلدته بصحبة ولديه إلى بغداد بحثا عن عمل. وهناك انتظموا في خدمـة مجاهـد الدين بهروز قائد حامية العراق، فوجههم إلى تكريت التي كانت إحدى إقطاعاتـه. وبعد وفاة شادي عين بهروز ابنه نجم الدين حاكما لتكريت.

في فترة صراع عماد الدين زنكي ضد مراكز القوى (سلاطين السلاجقة من جهة، والخلفاء العباسيين من جهة) لحقت بعماد الدين هزيمة اضطر معها للتراجع نحـو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب. فأقام هذا المعابر على دجلـة، وجهـز عددا من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينـة تكريـت. وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر مـا يحتاجون إليه. وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مـودعين بمثـل مـا استقبلوا به من حفاوة وتكريم. وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعا اعترافا منه بفضله وحسن ضيافته.[9]

وعندما بلغ قائد حامية بغداد ما فعله نائبه في تكريت "نجم الدين" في استضافته لخصمه عماد الدين زنكي، بعث إليه رسولا ليعاتبه على إحسانه لعـدو سـلاجقة

العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه. وزاد موقف قائد حامية بغداد حرجا عندما بلغه أن أسد الدين شيركوه قتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، فأصدر أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته. ولم يكن باستطاعة قائد حامية بغداد معاقبة أسد الدين شيركوه بعقوبة أكثر من ذلك نظرا لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه.[10]

وفي هذه الفترة الحرجة من أواخر عام 532 هجري= 1137 ميلادي ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب. واضطرت العائلة لمغادرة تكريت. ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمنا لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام. ولم ينس زنكي الإحسان. فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة، وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته، والإشراف على تربية أبنائه، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين.

وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية زنكي وأخذت علاقاتها بها تزداد وثوقا يوما بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام 534 هجري= 1138 ميلادي عين نجم الدين أيوب واليا عليها وأقطعه ثلثها. فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام 541 هجري= 1146 ميلادي وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده. وبدت عليه سيماء النجابة والذكاء، والتمعت عيناه ببريق القوة. وهكذا قدر لزنكي أن يمارس دورا كبيرا هاما في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود.[11]

عهد صلاح الدين

كان الانقسام الطائفي في العالم الإسلامي وضعف الدولة الفاطمية التي دفعتها لمهادنة الصليبيين وانقسام الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين من أسباب التذمر والفوضى والاضطراب في سوريا ومصر. وارتقى"**العاضد لدين الله**" آخر الخلفاء الفاطميين العرش عام 555 هجري= 1160 ميلادي. وما لبث أن اغتيل وزيره

الأرمني "طلائع بن رزيك" ونشب صراع بين رزيك ابن الوزير القتيل وخلفه في الوزارة، وبين "شاور" التركي الذي سبق "لطلائع" أن عينه حاكما على مصر العليا كتب فيه النصر لشاور 558 هجري= 1163 ميلادي. وأساء أبناء شاور في استخدام سلطان أبيهم فما كان من أحد قواده واسمه ضرغام إلا أن خلع طاعته متواطئا مع الخليفة، مما اضطر شاور أن يلتمس العون من نور الدين زنكي الذي سار على سنّة أبيه في الجهاد ضد الصليبيين.

كان نجم الدين أيوب وأخوه شيركوه قد غادرا بعلبك، فتوجه أيوب إلى دمشق ومعه ابنه صلاح الدين ولم تمض فترة حتى صار من أكبر الأمراء بدمشق. وقرب نور الدين زنكي أخاه شيركوه الذي رأى منه شجاعة نادرة وأرسله مرارا كما أسلفنا لمساعدة الفاطميين في حرب الفرنج. وكانت مهمته الأولى حين جاء شاور يطلب العون من نور الدين أنه يجهز جيشا كبيرا وعين شيركوه قائدا له واشترط نور الدين على شاور أن يكون له ثلث دخل البلاد بالإضافة إلى إقطاعات العساكر، وأن يقيم شيركوه مع جنده في مصر.

قاد شيركوه الجيش وبرفقته شاور سنة 559 هجري= 1163 ميلادي وتمكن من الوصول إلى مدينة بلبيس، فتصدى له ناصر الدين (أخو ضرغام) الذي كان يقود القوات الفاطمية وكان نتيجة الصدام أن تمزقت القوات المصرية وعادت فلول الجيش إلى القاهرة، ولاحقها أسد الدين. وعندما حاول "ضرغام " أن يثأر لهزيمة أخيه لقي مصرعه. وعاد شاور إلى منصبه في الوزارة وأقام شيركوه مظاهر القاهرة.

لم يلبث شاور بعد أن استتب له الأمر حتى أخذ في التنكر لمن ناصروه ورفض الالتزام بتعهداته لنور الدين، وأرسل يأمر شيركوه بالعودة إلى الشام، فما كان من أسد الدين إلا أن أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وفرض حكمه على المنطقة الشرقية، فأرسل شاور يستنجد بالفرنج يطلب دعمهم ومساعدتهم ويخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر.

وأخذ "**أمالريك الأول**" ملك القدس على عاتقه دعم شاور والاستيلاء على مصر.

وعندما وصل أمالريك إلى فاقوس الواقعة على فرع من فروع النيل لحـق بـه شاور وانضم إليه بمن معه من قوات فاطمية. وعلم أسد الـدين بـاقتراب قـوات الفرنج ففارق القاهرة وقصد مدينة بلبيس وتحصن بها ونظم الدفاع عنها. فاجتمعت القوات المصرية وقوات الفرنج ونازلوا أسد الدين وحاصروه بها ثلاثة أشهر، فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا. فبينما هم كذلك أتاهم الخبر بهزيمة الفـرنج في حارم واستيلاء نور الدين على حارم ومسيره إلى بانياس، فرغب أمالريك فـي رفع الحصار والعودة إلى مملكته للدفاع عنها.

اضطر أسد الدين للانسحاب إذ نفذت منه المؤن والذخائر، وجاءه فرنجي مـن الذين قدموا حديثا إلى الشرق وسأله: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المـصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك؟ فقال له شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنـت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجـال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين، وقد ضعفوا وفني رجـالهم وشـجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يـوم ولكنهم امتنعوا فرسم ذلك الرجل على وجهه شارة الصليب وقال: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن قد عذرناهم.[12]

كان أسد الدين يحاول جاهدا إقناع نور الدين زنكي والخليفة العباسـي ببغـداد بضرورة الحملة على مصر لقتال الخلافة الفاطمية الشيعية. ونجح في الحـصول على الموافقة من كليهما. وأعد حملته بإشراف نور الدين الذي سار برفقته.

وسار شيركوه من دمشق في 563 هجري= 1167 ميلادي وصحبه في هـذه الحملة صلاح الدين. واستنجد شاور مرة أخرى بملك القدس الذي كان حينذاك في نابلس فدعا بارونات له لاجتماع به. وأشار أمريك إلى ما تتعرض له فلسطين مـن خطر إذا استولى السوريون السنّيون على مصر، فوافقت المحكمـة العليـا علـى توجيه حملة كاملة العدة والعدد لإنقاذ شاور، وحشدت في هذه الحملة كـل القـوة الضاربة بالمملكة، فضلا عن اتخاذ مواقعها على الحدود لدرء مـا يجـري مـن هجمات أثناء غياب ملك القدس. والتزم كل رجل من الفرنج لم يشترك بهذه الحملة بدفع عشر دخله. غير أنه حدث قبل أن يكتمل استعداد جيش الفـرنج، أن وردت

الأنباء أن شيركوه يجتاز فعلا صحراء سيناء، فلم يسع أمالريك إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من العساكر لعرقلة مسيره، غير أن ذلك جاء متأخرا. فعلى الرغم من أن عاصفة رملية شديدة كادت تودي بجيش شيركوه فإنه وصل سالما إلى برزخ السويس في أوائل شباط 1167 ميلادي= 563 هجري وعندئذ اجتاز شيركوه الصحراء صوب الجنوب الغربي حتى بلغ نهر النيل عند اطفيح على مسافة أربعين ميلا جنوبي القاهرة.[13]

ثم عبر النيل عند اطفيح إلى الضفة الغربية فالتزمها في سيره حتى عسكر في الجيزة تجاه القاهرة. وفي تلك الأثناء اقترب جيش الفرنج من القاهرة، وقد قدم إليها من جهة الشمال الشرقي، فالتقى به شاور على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة. وعقد شاور عهدا مع أمالريك بعد أن رفض اقتراحا تقدم به شيركوه يقضي بالاتحاد لمناوأة المسيحيين. وتقرر أن يؤدي شاور للفرنج أربعمائة ألف دينار (بيزنت) يدفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، بشرط أن يقسم أمالريك بألا يغادر مصر إلا بعد طرد شيركوه منها.

وأنفذ الملك أمالريك إلى القاهرة كلا من هيو (سيد قيسارية) وجفري أحد فرسان الداوية الذي كان فيما يبدو يجيد التحدث باللغة العربية للحصول من الخليفة الفاطمي على الموافقة الرسمية على المعاهدة. ولقي الرسولان استقبالا حافلا، إذ اجتاز الرسولان في طريقهما صفوف الأعمدة والنافورات والحدائق التي قامت بها حظائر الحيوانات والطيور الضاربة، فصارا يسيران من قاعة إلى قاعة ازدانت بالأستار المصنوعة من الحرير وخيوط الذهب وترصعت بالجواهر حتى انفرجت أمامها آخر الأمر ستارة كبيرة مزركشة بالذهب، فكشف عن الخليفة الصبي وقد تلثم واتخذ مجلسه على سرير الملك المصنوع من الذهب، فتم أخذ الأيمان على الوفاء بالمعاهدة، ثم أراد هيو باعتباره ممثلا للملك أمالريك أن يختم العقد على نحو ما هو معروف في الغرب بأن يصافح يد الخليفة. فارتاع أهل البلاط المصري، غير أن الخليفة ابتسم ساخرا آخر الأمر ونزع قفازه وصافح هيو، ثم انسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما بما تكدس من ثروة الإمبراطورية الفاطمية.

ظل الجيشان شهرا يرقب أحدهما الآخر، ولم يستطع كل منهما أن يجتاز النهر قبالة الآخر، وأثناء ذلك أرسل أسد الدين شيركوه عيونه لاستطلاع أحوال قـوات الفاطميين وحلفائهم من الفرنج، وعاد هؤلاء إليه فأخبروه بكثرة عـددهم ووفـرة أعتدتهم وجدهم في ملاحقته وحربه، فعزم على قتالهم إلا أنه خـاف أن يـصيب الضعف نفوس جنده عند القتال في هذا الموقع الخطر حيث مصادر الهلاك أكثـر من مصادر السلامة في الانقطاع عن الوطن وقلة العدد وأخطار الطريق مما قـد يؤثر في النفوس فجمع قادته وشاورهم، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام وقالوا له :"إن نحن انهزمنا وهو الأغلب فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار عدو لنا؟"

فنهض عند ذلك أمير من مماليك نور الدين، يقال له **شرف الدين بـرقش** وكـان شجاعا فقال: من يخاف القتل أو الأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيتـه مـع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نُعذر فيـه، ليأخـذن مالنا من إقطاع ومال ويقول:" تأخذون أموال المسلمين وتفـرون عـن عـدوهم وتسلمون، مثل مصر، إلى الكفار". والحق بيده.

فقال أسد الدين: هذا هو الرأي وبه أعمل وقال ابن أخيه صـلاح الـدين مثـل قوله.[14]

وفي هذه المعركة هزم أمالريك ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم بينما وقع آخرون في الأسر ومنهم هيو (سيد قيسارية) وتراجع أمالريك وشاور بمن تبقـى من جيشهما إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية التي تركاها هناك تحت قيادة الكامل ابن شاور وهيو أبلين وذلك في يوم 18 آذار 1167 ميلادي.

تجنّب شيركوه الهجوم على القاهرة واتجه بسرعة إلى الشمال وما لبث أن ظهر أمام الإسكندرية التي فتحت ذراعيها لاستقبال الجيش الظافر نظرا لما تكنّـه مـن الكراهية لشاور، وخلال هذه الفترة كان ملك القدس أمالريك وحليفه شاور قد نجحا في إعادة تنظيم قواتهما وانطلقا إلى الإسكندرية في إثر أسد الدين فألقيا الحـصار على المدينة.

وقُدمت بعض الإمدادات للصليبيين من فلسطين، وأقلعت سفن الفرنج حتى تكمل حلقة الحصار. وبعد أن مضى شهر على الحصار وأخذت المؤن في النفاذ، نظـم أسد الدين قوة كبيرة وغادر الإسكندرية تاركا بها حامية للدفاع عنها تـضم ألـف رجل بقيادة ابن أخيه صلاح الدين واتجه نحو الصعيد وأراد أمالريـك أن يمـضي لمطاردته غير أن شاور نصحه بأن يترك شيركوه وشأنه ويستمر فـي حـصار الإسكندرية.

وحين اشتدت وطأة الحصار على الإسكندرية وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج مما دفعه أن يكتب لعمه طالبا عودته. وعندما اقترب من الإسكندرية جرت اتصالات تم فيها الاتفاق أن يجلو شيركوه والفرنج معا وأن يتعهد شاور بألا يعاقب رعاياه بالإسكندرية وغيرها ممن ساندوا جيش أسد الدين. وقبل أمالريك بالـشوط لأن فلسطين وطرابلس والمناطق المحتلة من قبل الصليبيين كانت مهددة من قبـل نور الدين.

رحل ملك بيت المقدس أمالريك إلى قاعدته بعد أن وقّع اتفاقا مع شاور يـؤدي بموجبه أتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة من الذهب. وبأن يبقـى فـي القـاهرة مندوبا ساميا من الفرنج، وبأن تظل في القاهرة حامية من الفرنج تتولى حراسـة أبواب المدينة. ولم يلبث أن بعث رسوله إلى الإمبراطور البيزنطي باقتراح بفـتح مصر فوافق الإمبراطور على أن يكون له نصيبه من غنائم مصر، ويكـون لـه التصرف التام في أمر أنطاكية، ويتنازل له أيضا عن بعض بلاد الفرنج. فبعـث أمالريك رسوله وليم الصوري للمفاوضات التي تمـت بنجـاح فـي عـام 1168 ميلادي.[15]

أما في مصر فإن دخول الفرنج القاهرة لأول مرة وبقاء الحامية فيها وما جرى من توقيع الاتفاقية، هزت الضمير الإسلامي فقام الكامل " **شـجاع بـن شـاور** " بالاتصال بنور الدين زنكي، وأرسل إليه وفدا من بعض الأمراء يبلغه محبته لـه وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه تخصيص قدر من الأمـوال يرسله سنويا. ووافق نور الدين على هذا التحالف وبعث الكامل شجاع ما وعد به من الأموال.[16]

أسرع أمالريك في الهجوم على مصر ضاربا بعرض الحائط بالمعاهـدة التـي عقدها مع شاور بسبب إصرار فرسانه " **الأسبتارية** " ونهمهم الشديد للقتال حتى لا يشاركهم اليونانيون البيزنطيون في غنائم مصر، ووصل بلبيس فرفض " طـيء بن شاور " قائد حامية بلبيس فتح أبواب المدينة للفرنج واستبسلت قواته في الدفاع عنها ثلاثة أيام. وفي 4 تشرين الثاني 1168 ميلادي دخل الفرنج الحصن ورافق دخولهم إجراء مذبحة مروعة للمسلمين والأقباط الذين رحبوا بالصليبيين على حد سواء، وتعاونوا معهم واعتبروهم منقذين لهم. ولما وصل أمالريـك إلـى أسـوار الفسطاط أمر شاور أهلها بالانتقال إلى القاهرة وأصدر الأمر بحرقها. وافتقر أهلها وذهبت أموالهم وثرواتهم وممتلكاتهم قبل أن ينزل الفرنج عليهـا بيـوم واحـد. وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما.

أدرك الخليفة الفاطمي "العاضد" خطورة الموقف الذي وصلت إليه مصر بسبب سياسة وزيره شاور وتعاونه مع الصليبيين. فأرسل إلى نور الدين يـستغيث بـه ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء. وقـال هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج" كمـا أرسـل أهـل مصر إلى نور الدين يشرحون له ما وصل إليه الموقف في بلادهم. ويعرضـون عليه تقديم ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيمـا عنـدهم فـي عـسكره، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارجا عن الثلث الذي لهم.

لم يكن شاور راغبا في التعاون مع نور الدين غير أن ابنه الكامل تغلب عليه. فأرسل بدوره إلى نور الدين يطلب دعمه. وأرسل نور الدين إلى شـيركوه الـذي كان يقيم بحمص يطلب حضوره، وقدم له كل دعم وأمده بثمانية ألف فارس كمـا قدم له مائتي ألف دينار ليستخدمها مع جيش دمشق في فتح مصر. وأمر صـلاح الدين بأن يسير في صحبة عمه. فسار على كره منه.

أنذر شاور حلفاءه الفرنج بالانسحاب من مصر لأن بقاءهم فيها سـيتيح لأسـد الدين الاستيلاء عليها بالقوة. فانسحب الفرنج قبل وصول شيركوه إلى القاهرة بستة أيام وعمت البشائر مصر والشام. وعرف شاور قوة جيش الشام والتفـاف أهـل مصر حول هذا الجيش وأدرك ما يحمله الخليفة العاضد من تأييـد لأسـد الـدين

وتظاهر بالتودد له وعزم على أن يقيم وليمة يدعو إليها أسد الدين والأمـراء ثـم يقبض عليهم. فنهاه ابنه الكامل وهدده بإعلام شيركوه لو فعل ذلك. فقال أبوه: والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا. فقال: صدقت ولأن نقتل ونحن مـسلمون والـبلاد إسلامية خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج فإنه ليس بينك وبين عودة الفـرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد ذاته إلى نور الدين لـم يرسل معه فارسا واحدا.

وعرف صلاح الدين بنوايا شاور وعزم على قتله فنهاه أسد الدين. فتصادف أن توجه أسد الدين لزيارة قبر الشافعي فجاء شاور كعادته ولقيه صلاح الـدين فـي جمع من الجند فأسره وهرب أصحابه عنه ولم يمكن أحدا من قتله دون أمر أسـد الدين. وسمع الخليفة العاضد الخبر فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه **رأس شـاور** فقتل وكان ذلك في 564 هجري= 1169 ميلادي. ودخل أسـد الـدين إلـى دار الخلافة وتقلد زمام الحكم. ولم تمض أسابيع قليلة حتى أصبح شيركوه سيدا علـى الديار المصرية بأسرها. واتخذ لقب الملك الوزير، ولكنه لم يعش طويلا ومات في 23 آذار 1169 ميلادي. وانتقلت ألقاب شيركوه وسلطاته إلى ابن أخيـه صـلاح الدين، وخلع الخليفة العاضد عليه لقب " **الملك الناصر** " وثبت قدمه باعتباره نائبا عن نور الدين.

صلاح الدين في مركز القوة

وضع صلاح الدين في قلب الأحداث على غيـر إرادة مـسبقة منـه. كانـت الأخطار المحيطة به عظيمة، وفي العالم الإسلامي أشد خطورة؛ وبقي الاتـصال بين الفاطميين والفرنج قائما. وكان هناك نور الدين زنكي الذي عقد العزم علـى الجهاد ضد الصليبيين ويريد من مصر أن تكون له ظهيرا قويا. وفي عـام 566 هجري= 1171 ميلادي دعا بأمر من نور الدين زنكي للخليفـة العباسـي فـي صلوات الجمعة في مصر ولم يحرك أحد ساكنا. وعاد أخيرا لمـسلمي العـراق وسوريا ومصر الانسجام الديني والسياسي وأصبح الجهاد قاب قوسين أو أدنى.

مهد صلاح الدين لهذا منذ استلامه الحكم، وحدث الانقلاب المذهبي تـدريجيا* وعلى مراحل، وعاد الناس إلى المذهب السني.

ثم خطا خطوة أخرى لإضعاف نفوذ حاشية القصر التي أصبحت تشكل طبقـة اجتماعية من كل قوم ومذهب عددها عند سقوط الخلافة ثمانية عشر ألفا يقومـون بأعمال القصر المختلفة ويتولى قيادتهم حينذاك (مؤتمن الخلافة **جوهر السوداني**) وجاءت الفرصة المناسبة حين بعث جوهر برسالة إلى أمالريك يعده فيها بالمساعدة إذا غزا الفرنج مصر. ولما علم جوهر باكتشاف أمره لازم القصر، ثم لجـأ إلـى قرية له فأرسل إليه صلاح الدين جماعة لحقوا به وقتلوه.

مات نور الدين زنكي في 569 هجري= 1174 ميلادي وحدث صـدام بـين عائلته والقواد وانقسم البيت الزنكي. وبدا أن الوحدة التي سعى إليها نور الدين قد انفرطت. ولكن صلاح الدين الذي تربى على تقاليد الجهاد لم يلبث أن قبض على السلطة في دمشق. كانت الضربة حاسمة إذ مكنته من العمل ضد دعـاة التجزئـة والمصالحة وذوي المصالح من التجار، وكل ذوي الأطمـاع الـصغيرة الأنانيـة الفردية. وسرعان ما دانت له السلطة الأدبية كزعيم للمسلمين بسبب سلوكه الحازم ودفاعه عن مصالح عامة المسلمين بينما كان خلفاء نور الدين على عكسه يقومون بدور الانقسام والضعف في البلاد.

مما لا شك فيه أن إنهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية كانت له رنة فرح بـين المسلمين السنّة على عكس المصريين الذين اعتادوا أن تكون مصر دولة مـستقلة لا يحكمها ولاة من بغداد أو دمشق، وكان سقوط الدولة الفاطميـة يعنـي عـودة بلادهم للخضوع للخلافة العباسية. أما العاضد فإنه لم يعش إلى اليوم الذي قُطعت فيه الخطبة وكان شديد المرض فلم يعلمه أحد بما كان يجري.

ولم تمض أكثر من أيام قليلة على إلغاء الخلافة الفاطمية حتى انطلق صـلاح الدين ببعض قواته فتجاوز سيناء ووصل إلى حصن الشوبك جنوبي البحر الميت،

* بعد دخول الفاطميين مصر كتبوا لأهلها أماناً أعلنوا فيه احترامهم للمذهب السني الذي كان مذهب غالبية المصريين في ذلك الوقت. ولكن في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي وضع نظام دقيق لتحويل المصريين وخاصة الموظفين والقوات المسلحة إلى المذهب الرسمي.

فطوقه وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال حتى طلبوا الأمان. وعاد إلى مصر إذ سمع بأن أباه نجم الدين أيوب الذي خلفه على مصر شديد المرض ويخشى وفاته فتخرج البلاد من أيديهم. ولما وصل إلى مصر وجد أباه قد قضى نحبه وكان ذلك في 27 ذي الحجة 568 هجري= 1172 ميلادي.

وكان أخطر ما جابهه صلاح الدين في هذه الفترة التآمر للإطاحة به 569 هجري= 1173 ميلادي فقد اتفق زعماء الفاطميين وقواتهم من السودانيين وحاشية القصر واتفق معهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من " صقلية " ومن ساحل الشام إلى مصر وتقديم الأموال لهم ووضع بعض الأقاليم تحت حكمهم فإذا ما جاء الفرنج، وخرج صلاح الدين بنفسه للقائهم، ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية، ويصبح صلاح الدين مرغما على الخروج من مصر.

وتم الاتفاق بين المتآمرين والفرنج على ذلك، ولم يبق إلا رحيل الفرنج من صقلية، إلا أن أحد المتآمرين، الواعظ والقاضي **زين الدين علي بن نجا**، الذي أدخله المتآمرون في صفوفهم لعلو مكانته، كشف المؤامرة لصلاح الدين فطلب منه ملازمتهم ومخالطتهم لتعريفه بما يستجد. ثم وصل رسول من ملك الفرنج مهمته الاتصال ظاهريا بصلاح الدين وإجراء الاتصالات السرية مع زعماء المؤامرة. فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق بهم من النصارى فكشفوا أمره واعترف هو بالحقيقة فقبض صلاح الدين على رؤوس المؤامرة وصلبهم. وطرد القوات السودانية إلى أقاصي الصعيد وشدد الحراسة على من في القصر من سلالة العاضد ومن أهله. وأخذ بالإستعداد لمواجهة الفرنج لو حاولوا غزو مصر.

كان أكثر ما يحز في نفس صلاح الدين وغر صدر نور الدين عليه وسعي ذوي النفاق عنده لإيهامه بأن صلاح الدين يتنكر له لأنه يطمح بالاستئثار دونه في حكم مصر. ولم يكد صلاح الدين يقضي على الخطر الداخلي حتى ظهر له الخطر الأكبر في استعداد نور الدين لغزو مصر والقضاء على الأيوبيين فيها. وأرسل نور الدين إلى الموصل وديار بكر والجزيرة يطلب قدوم الجند إليه للغزو وبينما هو يتجهز لذلك أدركته الوفاة في 11 شوال 569 هجري= 1174 ميلادي وحزن

صلاح الدين عليه حزنا شديدا وخنقته العبرات تقديرا منه لصفاته وأياديه البيضاء رغم ما استجد بينهما من عداء.

يتحدث ابن الأثير عن طموح الأكراد في الاستئثار بالحكم، وأن صلاح الـدين حين سمع بعزم نور الدين على غزو مصر جمع شباب الأسـرة الـذين أعلنـوا التحدي لنور الدين وشاورهم فقام والده نجم الدين أيوب وقال: "هذه البلاد له ونحن نوابه فيها. والله لو أمرني السلطان لأوثقت إبني بالأغلال وأسلمته إليه حفاظا على عرشه" وفي مجلس خلا بابنه وقال له: "ماذا فعلت؟ لو سمع بعزمنا علـى منعـه ومحاربته لوضع ثقله في حربنا فلا نقدر عليه. أما الآن فإنه ينشغل بغيرنا عنـا. والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر في مصر لقاتلته أنا عليهـا حتـى أمنعه أو أُقتل".[17]

ولو كان صلاح الدين طموحا لكان له العذر في ذلك كما يقول جيبون[18] إذ أن سلوك ورثة نور الدين واقتتالهم فيما بينهم يعطيه هذا الحق وينفي عنـه نكـران الجميل. لقد خلف نور الدين على الحكم ابنه "**الملك الصالح إسماعيل** " وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فكثر المطالبون بالوصاية عليه. وكتب صلاح الدين إلى أمراء دمشق أن تكون له الوصاية وقال: لو أن نور الدين يعلم أن فـيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظـم ممالكـه وولاياته. ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمتـه غيري. وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمتـه، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده.[19]

إن صلاح الدين باحترامه لابن نور الدين والدعوة له على المنابر بعد الخليفـة العباسي، وبسلوكه الكريم الإنساني، والكلام هنا لجيبون، وبعدم كفاءة ورثة نـور الدين ومؤهلاته هو، وبموافقة الخليفة الذي هو المصدر الوحيد للشرعية، وفـوق كل ذلك بالتمسك برغبات ومصالح المسلمين الذين كانت سـعادتهم الهـدف الأول لحكمه استطاع أن يجمع في فضائله، كما كان سلفه صفة البطل والقـديس. ولقـد قدره المسلمون والمسيحيون كلاهما تقديرهم للأولياء والقديسين. فالتفكير المستمر

في الحرب المقدسة ضد الفرنج كان يطبع حياتهما وكل أفعالهما[20] أما ابن الأخير فلم يكن على مستوى والده من الرغبة في الجهاد ضد الصليبيين، بل لم يكد يبلـغ مبلغ الشباب حتى أدمن الخمر وانشغل بالنساء، ثم هجرها لحماقات أكبر من شهوة الشهرة والسيطرة، بينما كان ثوب صلاح الدين من الـصوف الخـشن، وشـرابه الماء، وكان في نقائه يشبه النبي، وفي ممارسته العبادة مسلما ملتزما حتى أنه كان يأسى لأن الدفاع عن الإسلام لم يسمح له بالحج إلى مكة. ولم يكن يقطع صـلاته حتى وهو على ظهر الحصان يحارب الأعداء. إن عدل ديوانه كان متاحـا لكـل صاحب ظلامة مهما صغر شأنه ولو كان خصمه السلطان نفسه أو أحد وزرائـه. وبينما كان أمراء السلاجقة والزنكيون يمسكون بركاب فرسه وينافقون له، كـان ودودا صبورا مع أدنى خدمه رتبة ولم يكن هناك حد لكرمه وعطائه فقد وزع في حصار عكا اثني عشر ألف حصان بينما لم يوجد معه في جيبه عند وفاته من مال خاص إلا سبع وأربعون درهما من الفضة وقطعة واحدة من الذهب.

وفي العام نفسه توفي أماريك 11 تموز 1174 ميلادي وهو لا يتجاوز الثامنـة والثلاثين من عمره فانزاح من طريق صلاح الدين أقوى الخصوم الأداء.

التآمر للإطاحة بصلاح الدين وذيوله

يقول المقريزي[21] "إن جوهرا هو فاتح مصر، وخراب الفاطميين بسبب جوهر" وجوهر الأول "الصقلي" أما الثاني فهو المؤتمن "جوهر السوداني" الذي قتله صلاح الدين بسبب مؤامرته مع أماريك واكتشاف أمره. ولكن حاشية القصر التـي كـان عددها عند سقوط الدولة الفاطمية ثمانية عشر ألفا من موظفين من كل قوم ولـون ودين وأغلبهم من أصل أجنبي لم تكف عن التآمر. وكان نتيجة المـؤامرة الثـاني التي كُشف أمرها وأُعدم زعماؤها هي حملة ملك صقلية وليم الثاني على مـصر ولم يكن قد علم بفشل مؤامرة الفاطميين. وحشد أسطولا ضخما يضم مائتي سفينة إنزال وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وستة مراكب كبيرة تحمل آلـة الحـرب وأربعين مركبا تحمل المواد التموينية. وبلغت قوة المقاتلين 50 ألف مقاتـل مـن المشاة و1500 مقاتل من الفرسان وتولى قيادة هذه الحملة " **تانكرد كونت ليتشي** " وابن عم ملك صقلية.

وأبحرت الحملة لتظهر بصورة مباغته أمام الإسكندرية يـوم 26 ذي الحجـة 569 هجري= 1174 ميلادي فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعـوهم من الإنزال. ولكنهم نزلوا وتقدموا إلى المدينة ونصبوا المجـانيق وقـاتلوا أهـل المدينة.

وتم إعلام صلاح الدين بإنزال القوات الصقلية فتوجه إلى الإسـكندرية وكثـر القتل في الصقليين فهرب كثير منهم إلى البحر وغنم المسلمون خيامهم وما فيهـا من الأسلحة الكثيرة والإمدادات. وقد غرق كثير من الـصقليين وهـم يحـاولون ركوب سفنهم. وغاص بعض المسلمين وخرق بعض سفن الإنزال فغرقت وخاف الباقون فولوا هاربين.

وما كاد صلاح الدين يدرأ عن مصر الخطر الخارجي حتى وصـلته أخبـار اشتعال ثورة في الصعيد هدفها إعادة الخلافـة الفاطميـة570 هجـري= 1175 ميلادي بقيادة **كنز الدولة**، واشترك معه **عباس بن شادي** والي " قـوص " وهـي المدينة الواقعة شرقي النيل. ونجح الثائران في جمع جيش كبير يقال أنه بلغ مائة ألف من°أهل الصعيد والجنود المصريين والسودانيين الذين نفاهم صلاح الدين إلى الصعيد. فأرسل أخاه **العادل** الذي هزمهم وقتل عباسا وكنزا، وأخذ أسرى كثيرين وفر عدد كبير من القوات الفاطمية إلى النوبة.

أما المؤامرة الثالثة فقد جاءت من " الباطنية " الذين ارتـاعوا لـزوال الخلافـة الفاطمية في مصر. فأرسلت قيادة ألموت حاكما جديدا يتولى إقليم جبال النصيرية. واستهل هذا الشيخ المخيف الذي اشتهر عند الفرنج باسم " **شيخ الجبـل** " حكمـه بسياسة جديدة بالغة النشاط، فأرسل إلى ملك بيت المقدس في تلك الفترة أمالريـك يعرض عليه إجراء تحالف وثيق لمناهضة نور الدين. وأخذ يلوح بأنه يفكر مـع قومه في التحول الى المسيحية. وفرح أمالريك بتشجيع الصداقة معهم[22].

عندما أصبحت قاعدة صلاح الدين قوية في مصر مرت فترة تجنب فيها صلاح الدين المشاكل الخطيرة مع الفرنج وخصوصا بعد وفاة " أمالريك " فقد كان معسكر الفرنج كمعسكر المسلمين في سوريا كلاهما في فوضى بسبب الورثة فلقد تـولى الملك بعد امالريك ابنه **بولدوين** "الأبرص" وهو صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة من

عمره. وكان خلاف بين الفرنج على وصايته التي اضطلع بها في النهاية "ريموند كونت طرابلس" أما ابن نور الدين فقد وضعته أمه تحت رعايـة "**سـعد الـدين كمشتكين**" قائد حلب. ووجد أمراء دمشق الذين أصبح مـوقفهم ضـعيفا أن مـن الأفضل طلب دعم صلاح الدين فغادر مصر ومعه سبعمائة مقاتـل مـن أفـضل فرسانه فوصل دمشق في 26 تشرين الثاني 1174 ميلادي= 570 هجري. فخرج كل من بها من الجند فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده.

وفي اليوم التالي تسلم القلعة من حاكمها "ريحان" وأخرج ما فيها مـن أمـوال فأغدق على أهل الشام من المنح والعطايا وثبت قدمه، ثم جعل صلاح الدين أخـاه "**سيف الإسلام**" حاكما على دمشق باسم الملك الصالح الذي لا زال صلاح الـدين يظهر الولاء له، ولكن " الملك الصالح " خرج إلى أهل حلب فجمعهـم ورفـض وصاية صلاح الدين. ولعله كان مرغما على ذلك. وكان مما قالـه:" قـد علمـتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان أبي إليه يأخذ بلادي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق، وقال كثيرا مـن هـذا وبكى وأبكى" واندفع الناس فبذلوا الأموال والأنفس واتفقوا على قتاله.[23]

لقد دانت لصلاح الدين المدن السورية، ولقي مقاومة في حلب فلما اشتدت وطأة صلاح الدين وتصميمه على القتال أرسل "كمشتكين" يطلب الدعم من الفرنج كمـا يطلب الدعم من سنان زعيم الإسماعيلية الذي كان ينتظر تقديم مثل هـذا العـون بلهفة. وقام الحشاشون بمحاولات عدة لقتل صلاح الـدين ولكـنهم فـشلوا فـي المحاولات كلها. وهددهم صلاح الدين بتدمير حصونهم وحـربهم فـي معـاقلهم فأخلدوا للصمت، ولكن لم تُكسر شوكتهم تماما حتى أغار المغـول علـى دولـة الإسماعيلية جنوب بحر الخزر وقضوا عليها. فأصبح أتباعهم في جبال النصيرية كطائر قد فقد كلا جناحيه. بزوال الدولة الفاطمية في الغرب والدولة الإسـماعيلية في الشرق.

أما صلاح الدين فقد كان يسير من نصر لنصر ويسعى لبناء جيشه. ومـع أن حكمه كان عسكريا، فإن الضرائب على الناس تناقصت، واستمتع الأغنياء بثمـار أتعابهم دون خوف أو خطر. وزينت مـصر وسـوريا والحجـاز بالمستـشفيات

والمعاهد والجوامع وحصنت القاهرة بسور وقلعة. وكانت كـل أعمالـه مكرسـة للصالح العام. ولم يخص السلطان نفسه بحديقة أو قصر لرفاهيتـه الخاصـة. إن فضائل صلاح الدين في عصر متعصب كانت تأسـر المـسيحيين فـالإمبراطور الألماني يفاخر بصداقته والإمبراطور اليوناني يتوسل لمحالفته، واحتلال القـدس خلّد شهرته في الشرق والغرب.

معسكر الفرنج

كان فرنجة القدس غائصين في صراع داخلي على السلطة. ولم تكـن مملكـة القدس خلال وجودها القصير تتماسك إلا بالنزاع بين الأتراك والفاطميين. والخلفاء والسلاطين كلاهما يضحيان بالدين والوطن لاعتبارات أنانية ومصالح آنية. أمـا الآن فإن قوى مصر وسوريا والجزيرة العربية توحدت كلها بإمرة بطـل كانـت طبيعته وظروفه تهيئانه للجهاد ضد الصليبيين. أما في معسكر العـدو فالـصورة تحمل شواهد الانهيار. كل شيء ضعيف أجوف في داخل دولة القدس. فبعد حكـم بولدوين الأول والثاني، أخوي جودفري دي بويون أصبح التاج على رأس وريثة هي **ميليزندا**، ابنة بولدوين الثاني. وزوجها فولك، كونت أنجو، الأب، مـن زواج سابق، وأبناهما بولدوين الثالث وأماريك شنا حروبا جهيدة فاشلة على المـسلمين: أما ابن أماريك، بولدوين الرابع فإنه حرم بسبب الجذام من موهبة العقل والجـسد وأصبحت أخت **سيبيلا**، أم بولدوين الخامس الوريثة الطبيعية. وبعد موت طفلهـا بطريقة مريبة، تزوجت زوجها الثاني **جاتي اوزنيان**، وهو أمير وسـيم، مـشهور بخسته حتى أن أخاه جفري صاح قائلا: ما داموا قد جعلوا منه ملكـا فيجـب أن يجعلوا مني إلها" وكان ريموند الثالث كونت طرابلس الذي أُبعد عن الملك يـشعر بكراهية شديدة للملك الجديد فعرض شرفه وضميره لمغريات الـسلطان. هـؤلاء كانوا حرس المدينة المقدسة: مجذوم، وطفل، وامرأة، وجبان، وخائن، ومع ذلـك فإن مصير المدينة تأخر اثنتي عشرة سنة[24]

لقي نبلاء المملكة بقيادة ريموند الثالث كونت طرابلس وحاكم طبرية اللذان كانا يريدان السيطرة على المملكة معرضة جماعة قدمت حديثا إلى البلاد بينهم **رينالد دي شاتيون** أمير الكرك ومونتريال (شرق البحر الميت) **وجيرار ردفورت** الـذي

أصبح رئيسا **للتمبلار** في 1186 ميلادي= 583 هجري وكـان كلاهمـا رجلـين طائشين يكرهان ريموند. وعندما مات بولدوين الخامس في 1186 ميلادي= 583 هجري نصب جيرار وريناالد جاي لوزنيان صهر بولدوين الرابع ووالد بولـدوين الخامس على العرش وتوجاه سرا. وهذه الحركة كادت تورط المدينة في حـرب أهلية.

إن السيطرة على البحر الأحمر كانت ضرورية للدفاع عـن مـصر ولحمايـة الاتصالات مع الجزيرة العربية المقدسة. وكانت طرق الحجيج الهامة تمـر مـن وادي النيل على مصر العليا عبر صحراء القصير والأيضب. وقام الصليبي ريناالد دي شاتيون أمير الكرك بحملة يائسة على سفن المسلمين. وساعده بدو سيناء فـي حمل السفن برا من شاطئ المتوسط إلى ايلة في خليج العقبة حيث جمعت قطعهـا وأُنزلت في الماء. ولمدة عامين كان أسطول ريناالد يثير ذعر المسلمين. فقد أبحر إلى الأيضب وغزا الميناء ودمر قافلة حجيج ثم نزل على البر وذبح قافلة حجـيج أخرى. وعبر ريناالد إلى الحجاز وكان على وشك أن يغزو المدينة لولا أن أسطولا مسلما من القلزوم دمر سفنه وأغرقها. وهرب ريناالد مع بعض رجاله إلى الشمال إلى إقطاعيته. وأصبح البحر الأحمر آمنا لملاحة المسلمين لمدة 300 عام حتـى وصول البرتغاليين.

وعند هذا المنعطف نكث ريناالد معاهدة بينه وبين صلاح الدين فنهـب قافلـة كبرى كانت في طريقها من مصر إلى دمشق وفيها أخت صلاح الدين فأسرها ثم قتلها. وكان من قبل قد هاجم قافلة حجاج ذاهبة إلى مكة، فأقسم صلاح الدين على قتله، واستنفر الناس للجهاد الذي طال تأجيله.

استمر تدفق القوات على صلاح الدين من حلب والموصل وماردين* ومن كـل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية فجمع من القوات ما لم يتمكن من جمعه من قبـل، وقام صلاح الدين باستعراض قواته في معسكر الحشد في "بانياس" فبلغـت قـوة

* شمال سوريا والعراق كان يسكنها زمن بني حمدان أقوام من الكرد والأرمن واليونان واليعاقبة والموحدون العرب.

جيشه 12 ألف فارس سوى المتطوعة وجند المشاة** ثم سار بجيشه فنزل "بالاقحوانة" قرب طبرية. وكان رأي أكثر قادته أن يتجنب المجابهة ويعمل على إضعاف الفرنج بالغارات، ولكن صلاح الدين اتخذ قراره فقال:" الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد."

وخلّف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحدا. ولا فارقوا خيامهم، فنزل وجنده حتى إذا ما هبط الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال. وقاد قوة من الفرسان إلى طبرية، وأخذ المدينة عنوة في الليل، فلجأ من بها إلى قلعتها فاعتصموا بها، وتولت الملكة زوجة ريموند ومعها أولادها أمر الدفاع عنها.

تولى ملك بيت المقدس "**جاي**" إدارة الحرب ودعا الأمراء والقادة لحشد قواتهم. وحشدت إمارات الفرنج كل ما تستطيعه، فتشكل جيش صليبي يضم 1200 من الفرسان بكامل أسلحتهم، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين ونحو 10 آلاف من المشاة.

عقد الملك "جاي" مجلسا مع بارونات في عكا. وكان ريموند كونت طرابلس أول من تحدث في الاجتماع، فأشار إلى أن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة، لن تكون الأحوال في صالحه، فينبغي أن تقوم خطتهم على التزام الدفاع المطلق. فإذا لم يتعرض المسيحيون للهزيمة فلن يكون بوسع صلاح الدين الاحتفاظ بقواته الضخمة فترة طويلة في هذه البلاد الجافة اللافحة الحرارة، وسينسحب بعد فترة وجيزة. وفي الوقت ذاته تصل الإمدادات من أنطاكية.

كان معظم الفرسان يميلون إلى إتباع هذه النصيحة غير أن رينالد شاتيون وجيرار اتهما ريموند بالجبن وأنه باع نفسه للمسلمين. وفي ذلك المساء وصل رسول من قبل كونتيسة طرابلس فتأثر الفرسان من استماتة هذه السيدة الباسلة في الدفاع عن قلعتها عند بحيرة طبرية، فنهض ريموند وأعاد ما سبق قوله وأضاف:" إن طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقيت القلعة وفيها

** يذكر جيبون أن عدد الفرسان والمشاة بلغ ثمانين ألفاً.

زوجتي، وقد رضيتُ أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا ويعود، فو الله لقـد رأيـت عساكر الإسلام قديما وحديثا، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صـلاح الـدين كثرة وقوة. وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها، وإن قام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الـصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ونفك من أسر منا."

ولما انفض المجلس في منتصف الليل، وانصرف البارونات إلى قواتهم رجـع مقدم الداوية إلى الملك وقال:" سيدي، هل أنت مقدم على أن تثق في خـائن؟ إنـه لمن العار أن تترك للضياع مدينة لا تبعد عن المعسكر سوى ستة فراسخ." وأقنعه أن لا يضيع فرصة الانتقام من المسلمين. فبعث الملك بالمنادين يطوفون بالخيـام ويعلنون أن الجيش سيتحرك عند طلوع الفجر إلى طبرية.

قاد صلاح الدين جيشه مسافة خمسة أميال عبر التلال حتى بلغ **حطّين**، حيـث أخذ الطريق يهبط نحو البحيرة. وكانت حطّين قرية غنية بمراعيها وفيرة الميـاه، ولحق بصلاح الدين معظم الجند من طبرية حتى لم يبق بها من القوة إلا ما هـو ضروري لحصار القلعة. وبذلك ضمن المسلمون لأنفسهم الحصول على الماء في تلك الفترة من الصيف والحر شديد القيظ. أما الفرنج فلم يعد أمامهم إلا العطش، إذ ليس باستطاعتهم الوصول إلى الماء، كما لم يعد باستطاعتهم الرجوع خوفـا مـن المسلمين.[25]

يتهم "جيبون" ريموند بأنه هو السبب في كارثة حطّين فخيانته قادت الجيش على طبرية التي كانت من أملاكه، ونصيحته ألقت بالمسيحيين في معسكر خـال مـن الماء، ولم يلبث حين التقى الجمعان أن كان أول الفارين. وغُلب لوزنيـان وفُقـد ثلاثون ألفا من رجاله، وتُرك الصليب المقدس الحقيقي في حوزة المسلمين، وقيـد الأسير الملكي إلى خيمة صلاح الدين وقد أُغمي عليه تقريبا من العطش فقدم لـه المنتصر الكريم كأسا من الشراب المثلج بدون أن يسمح لرفيقه رينالد شـاتيون أن يشترك في عفو صلاح الدين وكرمه. فوفقا لتقاليد الضيافة الإسلامية فإنـه متـى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير فإن ذلك معناه الإبقاء على حياته. ولما سـلم جاي كأس الشراب إلى رينالد قال صلاح الدين للمترجم: "أخبر الملك أنه هو الذي

أعطى ذلك الرجل الشراب ولم أناوله إياه." ثم التفت إلى رينالد فـذكره بجرائمـه وخيانته وغدره، وقال له: "كنت نذرت مرتين أن أقتله إذا ما ظفرت به. إحـداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما غدر بالقافلة." وقام صلاح الدين إليه بنفسه فضرب عنقه بيده وفاء لقسمه. ولما لاحظ ما اعترى "جاي" من ذعر طمأنه قائلا "إن شخص وكرامة الملـك محفوظـان لـدينا، والملـك لا يقتـل ملكـا." وأرسل لوزنيان إلى سجن محترم في دمشق ثم فدى نفسه.

وفي هذه المعركة أُعدم مائتان وثلاثون فارسا مـن "الاسـبتارية" وأصـبحت المملكة بدون رئيس أو قيادة؛ فإن القائدين العسكريين للصليبيين قد قتـل أحـدهما وسجن الآخر، وخلت من الحاميات الشواطئ والمدن الداخلية التـي زجـت فـي المعركة المهلكة. وتم تصفية أضخم جيش استطاعت أن تحشده القوات الـصليبية. وسار صلاح الدين إلى مدن وموانئ وحصون الصليبيين، وتم تحرير معظمها ولم يبق إلاّ صور وطرابلس وبعد ثلاثة أشهر من معركة طبرية ظهر صلاح الـدين أمام أبواب القدس.

يقول جيبون[26]: "ربما توقّع صلاح الدين أن حصار مدينة لهـا تلـك المكانـة السامية دنيويا ودينيا بالنسبة للأوروبيين والآسيويين أن توقد ثانية شعلة الحمـاس الباقية، وأن كل رجل من بين الستين ألفا من المسيحيين سيكون جنديا، وكل جندي سيطلب الشهادة من أجل مبدئه. ولكن الملكة "سيبيلا" كانت ترتعد فرقا على نفسها وعلى زوجها الأسير؛ وأظهر البارونات والفرسان الذين نجوا من سيوف وأسـر قوات صلاح الدين* روح الأنانية الانهزامية في ذلك الدمار العام. وكـان معظـم سكان المدينة من اليونان والمسيحيين الشرقيين الذين علمتهم التجربة أن يفـضلوا المسلمين على النير اللتيني. ولم يجذب الضريح المقـدس إلا جمهـورا محتاجـا وضيعا، بدون سلاح أو شجاعة، يعيش فقط على التسول وإحسان الحجـاج. لقـد بذلت جهود ضعيفة متسرعة للدفاع عن القدس، ولكن خلال أربعة عشر يوما كان الجيش المنتصر يدحر القوات المحاصَرة التي تصدت للقتال، ويمركز آلياته ويفتح منافذ في السور ويثبت السلالم ويرفع اثني عشر علما للمسلمين فوق فتحة السور.

* القوات كانت مشكّلة من أكراد وأتراك سنّة.

وذهب موكب من الملكة والنساء والرهبان حفاة إلى الـضريح المقـدس، وعبثـا ناشدوا ابن الإله أن ينقذ ضريحه وميراثه من الانتهاك. وكان أملهم الوحيـد هـو رحمة الفاتح ولكنه أنكرها عليهم وقال بأنّه أقسم أن ينتقم لطول عـذاب ونـصب المسلمين. ولكن صلاح الدين أصغى بعمق إلى مناشدة ضميره وإيمانه، وغلبـت عواطفه **الإنسانية** رغبة الانتقام وقسوة التعصب. رضي أن يحتل المدينة ويـوفر دماء سكانها، وسمح لليونان والمسيحيين الشرقيين أن يعيشوا فـي كنفـه، ولكنـه اشترط **جلاء الفرنجة واللاتين** عن القدس خلال أربعين يوما وتسييرهم إلى موانئ سوريا ومصر؛ واشترط أن يفتدي الرجل نفسه بعشر قطع ذهبية والمرأة بخمـس والطفل بقطعة واحدة، أما من لا يستطيع شراء حريته فإنه يحتبس في قائمة العبيد.

ومع ذلك فإن صلاح الدين خفض كثيرا من مطالبه للفداء وقبل ثلاثـين ألـف بيزانت لفدية سبعة آلاف فقير، وسمح لألفين أو ثلاثة آلاف أن يطلق سراحهم دون مقابل، وقد انخفض عدد العبيد إلى أحد عشر ألفا أو إلى أربعة عشر ألفـا، وفـي مقابلته مع الملكة، وكلماته وتأثره قدم أحر التعازي؛ ووزع إحسانه الكريم علـى أيتام الصليبيين وأراملهم وبينما كان فرسان الإسبتارية لا يزالون مسلحين ضـده سمح لإخوتهم الرهبان ان يبقوا عاما لرعاية وخدمة مرضاهم.

عادت القدس إلى المسلمين، وعاد **مسجد عمر** الذي تحول إلى كنيـسة زمـن الصليبيين ليكرس مرة أخرى لعبادة الله الواحد. ولكن الحروب الصليبية لم تنتـه واحتاج الأمر إلى قرن آخر من الزمن بعد موت صلاح الدين حتـى تـم طـرد اللاتين النهائي من سوريا ومعهم الفلول من الأقليات الدينية التي تعاونت معهم.

نتائج تحرير القدس

دمر جيش الفرنج تدميرا تاما في حطين ولم تقم للصليبيين قائمة بعدها بـالرغم من الحملة الصليبية الثالثة التي استنفر لها البابا جريجوري الثامن وخليفته كليمنت الثالث، ملوك أوروبا جميعا لاسترداد القدس. وهذه الحرب الصليبية الثالثة التـي كان قادتها "رتشارد الأول ملك انكلترا" و "فيليب أغسطس الثاني ملـك فرنـسا" و"فريدريك الأول باربروسة ملك ألمانيا وإمبراطور روما المقدسـة" لـم تحقـق أهدافها في استعادة مملكة القدس للصليبيين. ففريدريك غرق في نهر سالف فـي

كيليكيا (أرمينيا الصغرى) وتفرق جيشه وعاد معظمه إلى أوطانه، واستمر البعض إلى آخر الحملة.

كان ريتشارد ملك إنكلترا يمتلك إقطاعيات واسعة في فرنسا وكان هذا سـبب العداوة بينه وبين فيليب أوغسطس. وبسبب انعدام الثقة بينهما سـارا منفـصلين. ووصل فيليب إلى عكا في 20 نيسان 1191 مـيلادي= 588 هجـري وتوقـف ريتشارد في قبرص وشن حربا على حاكم الجزيرة واحتلها ثم تابع سيره واصـلا عكا في 8 حزيران 1191 ميلادي= 588 هجري.

كانت عكا تحاصرها قوات جاي ملك القدس سابقا الذي تعهد عند فك إساره أن لا يحارب المسلمين ولكنه نقض عهده. فانضم فيليب وريتشارد إليه واستولوا على عكة بعد حصار طويل مرير في 12 تموز 1191 ميلادي= 588 هجري. وعـاد فيليب أغسطس بعد ذلك إلى بلاده معتبرا أنه أوفى بنذره. أما ريتشارد الذي أنفق الكثير في هذه الحملة، وكان شرسا محبا للقتال اتخذ قراره بالزحف على القـدس وأمر بالإجهاز على ثلاثة آلاف أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا من حاميـة عكا. واشتد حماس الإنكليز لهذه المجزرة، ولقيت زوجـات الأسـرى وأطفـالهم مصرعهم إلى جوارهم. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتـى حلـول الظلام، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم.

لم يتمكن ريتشارد من الوصول إلى هدفه، فقد نظّم صلاح الـدين قواتـه فـي **أرسـوف**، وحدثت معركة في 7 أيلول 1191 ميلادي لم يستطع فيهـا أيـا مـن الطرفين حسم الصراع لصالحه. وهذه المعركة أقنعت ريتشارد بصعوبة اسـترداد القدس الذي هو هدف الحملة التي لم يغنم الفرنج فيها إلا عكا وشريطا ساحليا يمتد حتى عسقلان.

وجرت مفاوضات بين ريتشارد وصلاح الدين وحصل على معاهـدة تـسمح للحجاج بحق زيارة الضريح المقدس. وعندما مات " جاي " في 1192 مـيلادي عاد ريتشارد بعد أن ضم قبرص إليه مقيما بذلك إمارة أخرى صليبية بقيت حتـى زوالها على يد أهل البندقية في 1489 ميلادي.

إن ما بقي من إمارات صليبية متفرقة لا تجمعها دولة أو هدف عام اسـتمرت في الوجود مائة عام أخرى حتى زوالها على أيدي المماليك. أما صلاح الدين فإنه عاد إلى دمشق واستقر بها، ولم يلبث أن سقط مريضا لمدة ثمانية أيـام واشـتدت وطأة المرض عليه ففارق الحياة فـي 27 صـفر 589 هجـري= 3آذار 1193 ميلادي فما عن انتشر نبأ الوفاة حتى خرجت دمشق بأسرها تبكيه وتعـول عليـه وتتمنى لو فدته بأعز ما تملك. وحين توفي لـم يكـن عمـره يتجـاوز الـسابعة والخمسين ولم يكن يملك شروى نقير.

المؤلفات التاريخية والقصصية التي تتعلق بصلاح الدين مثيرة وكلها تتفق على أنه من أعظم القواد كفاءة واستقامة وإنسانية. إن الإنتصارات الرائعة التي حققهـا ما كانت نتيجة حظ صادفه أو خطأ حربي وقع فيه العدو. لقد انهار كل البناء الذي أقامه الفرنج في قلب العالم العربي الإسلامي بسبب **وضوح الهدف وإخلاص النية في الجهاد**. وضاعت جهود الصليبيين خلال قرن من الزمن في معركة حاسـمة كانت قد بدأت منذ أن رفع نور الدين راية الجهاد واسـترد إمـارة "الرهـا" فـي الشمال، فالعالم العربي بتعدد انتماءاته وتمزقه ما كان قادرا على مجابهة التحديات الخارجية. ولقد بذلت جهود خلال حكم عماد الدين زنكي ومن بعده نـور الـدين لتوحيد المسلمين فلم يتم ذلك إلا على يد صلاح الدين. وأصبحت في عهده مـصر وسوريا والإمارات الشمالية بلدا واحدا، أضف إلى هذه الشرعية التي كان يبـارك بها هذه الوحدة خليفة بغداد. فالتحدي الصليبي الذي كان يستنفر كل قوى أوروبـا المسيحية ما كان بالإمكان التصدي له بعالم إسلامي منشق مـذهبيا، أو بقوميـات غريبة لم يصهرها الإسلام الذي كان شعاره "لا فضل لعربي علـى أعجمـي إلا بالتقوى" فصلاح الدين لم يكن يحارب الصليبيين بكرديته وإنما بإسلامه وإيمانـه ولصالح المسلمين.

قد تكون القوات التي استعان بها في محاربة الغزاة الفرنج من أصول كرديـة وتركية في معظمها إذ تم تجنيدها بشكل خاص من الموصل وحلـب ومـاردين، ولكن من المؤكّد أنها منسجمة مذهبيا وتتوفر فيها الكفاءة البدنية العاليـة وتحمـل الصعاب وكره القتال، وتتحلى بروح معنوية عالية عبرت عنها ليلة حطّين حيـث

كان المسلمون يمضون ليلهم في الصلاة والتكبير والـدعاء بينمـا كـان الفـرنج يرتعدون خوفا مما ينتظرهم.

عندما استسلمت القدس ودخلها صلاح الدين أقام المسلمون في بيـت المقـدس ولأول مرة منذ 88 عاما أقيمت احتفالات الإسراء والمعراج. وأمر صلاح الـدين بإزالة كل رموز العبادة المسيحية، وجرى تطهير **المسجد الأقصى** من آثار احتلال "الداوية" وثم رشّ كلا البنائين قبة الصخرة والمسجد الأقصى بماء الـورد. وتـم إعداد المسجد من جديد لإقامة الشعائر الدينية. وكان نور الدين زنكي قـد عمـل بحاب منبرا لينصب في بيت المقدس فعمل النجارون في صنعه عدة سنين فـأمر صلاح الدين بإحضاره من حاب ونصبه بالقدس، وكان بين عمل المنبر ونـصبه عشرون سنة هي عمر الجهاد الذي بدأه نور الدين وتكلل بالنجاح على يد صـلاح الدين.

جاء الصليبيون إلى القدس ككل الغزاة الطامعين وإن ألبسوا حملاتهـم زيـف الإدعاءات المسيحية في إنقاذ الضريح المقدس وخاضوا في دماء سبعين ألف مسلم يوم احتلوا المدينة المقدسة. ولما استردها صلاح الدين بعد ثمان وثمانين عاما لـم ينهب بيت ولا حلّ بشخص مكروه. حتى رجال الكنيسة الذين كـانوا يحرضـون على القتال شملهم العفو وفدوا أنفسهم وعلى رأسهم بطريرك القـدس الـذي أدى عشرة دنانير وغادر المدينة وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الـذهب، وتبعتـه العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة مـن المعـادن النفيسة. أما صلاح الدين فعندما فُتحت خزائنه يوم وفاته لم يكن بها غيـر دينـار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية.

لقد حمل **أمانة التحرير** خلال أصعب فترة من تاريخ المـسلمين وحـشد لهـذا الهدف كل طاقات الأمة العربية والمسلمة، وحافظ على عروبة وإسلام المنطقة إلى يومنا هذا. انتهى الهجوم الكبير على الفرنج ووقعت معاهدة سمحت بقيام مملكـة صغيرة تمتد من أنطاكية إلى يافا. وبقيت القدس في أيدي المسلمين ولكن مفتوحـة للحجاج المسيحيين. وفي نفس العام الذي توفي فيه "جاي" توفي "راشد الدين سنان" زعيم الاسماعيلية بقلاع الشام.[27]

والملاحظ أيضا أن الاسماعيلية لم يتعاونوا مع الفرنج بـالرغم مـن محاولـة الصليبيين جرهم إلى ذلك، ولم يعيقوا حركة صلاح الدين بعد محاولتين لاغتيالـه. لقد انتهى دورهم كمراكز وسيطة بين الدولة الفاطمية والدولة الإسماعيلية في الديلم وجرجان جنوب بحر الخزر.. ولكن حصونهم كانت ملجأ للمهاجرين الشيعة عـن طريق سنجار، حيث يسكن الجبل أكراد زيديون وهو مركز حدودي بين العـراق وسوريا، عندما سقطت حصون الإسماعيلية على أيدي المغول.

ورثة صلاح الدين

بعد موت صلاح الدين انقسمت سوريا بين أعضاء أسرته الذين شكلوا إمارات منفصلة في حلب وحمص ودمشق وبعلبك والأردن، وكان تاريخهم إمـا نزاعـا مسلحا فيما بينهم أو حروبا مع الصليبيين، ومع ذلك فإن سوريا حصلت في العهد الأيوبي 1193-1260 ميلادي= 590-659 هجري على مستوى من الازدهار لم تتمتع به منذ القرن الثالث والرابع الهجري.[28]

حكم ابنه العزيز مصر، وأبناء آخرون مناطق مـن سـوريا. وبـدأ الإخـوة يتنازعون، مما جعل **الملك العادل**، أخا صلاح الدين يتدخل وينجح بـين 1196-1199 ميلادي= 593-596 هجري في أن يصبح سيد مصر ومعظم سوريا.

وقد عرف عن العادل أنه رجل سلم، عاش بـصورة عامـة دون نـزاع مـع الصليبيين لصالح تجارة المسلمين مع الغرب. وسمح لأهل البندقيـة أن يـشيدوا محطة تجارية في الإسكندرية وبيزانس ليقيم القناصل هناك. وأسس أبناؤه فروعـا جديدة من الدولة الأيوبية في سوريا والعراق بالرغم أن الفرع المـصري اسـتمر معتبرا بأنه الأعلى مركزا. ومات العادل في 1218 ميلادي= 616 هجري.[29]

الحملة الصليبية الرابعة

استمرت آمال الغرب في تجنيد حملة صليبية جديدة بعد الفـشل الـذريع فـي الحملة الثالثة، ففي 1199 ميلادي= 597 هجري قـرر **ثيبـوت الثالـث** كونـت شامبياني ونبلاء فرنسيون آخرون أن يباشروا في حملة صليبية أخـرى. وكانـت الخطة التي باركها **البابا أنوسنت الثالث** والبارونات الفرنسية بتدبير مـن حـاكم البندقية **أنريكو داندلو** أن يتم نقل الجيش من البندقية. ولما اجتمع الجـيش هنـاك

كان ينقصه المال اللازم للعبور المتّفق عليه. ووقع الصليبيون في الديون لتـأمين معيشة جيشهم في المعسكرات. ووافق داندلو على قبول تأجيل ديونهم إذا سـاعد الصليبيون الفرنسيون مدينة البندقية في احتلال زارا (زادار) وهي مدينة مـسيحية على شاطئ دالماشيا يحتلها ملك هنغاريا. وبالرغم من معارضة أنوسـنت، فقـد أبحرت القوات إلى زارا واحتلتها في تشرين الثاني 1202 ميلادي= 600 هجري ونهبتها.

وبعد أن أمضى الصليبيون الشتاء في زارا جاء من يقنعهم باصطحاب البنادقة إلى القسطنطينية لينصبوا المدعي **الكسيوس ابن إسحق الثـاني** المخلـوع عـن العرش الإمبراطوري البيزنطي. ووعد الكسيوس بوفاء الديون التي عليهم للبندقية، وأن يساعد في حملة صليبية على مصر، وفي إخضاع رجال الدين الأرثـوذكس اليونان للبابوية. وحسب هذا المخططأبحرت الحملة إلى السطنطينية. ونجح البنادقة والفرنسيون في تنصيب المدعي ألكسيوس على العرش هو ووالده الشيخ كشريكين في الحكم في أغسطس 1203 ميلادي. وأصبح ألكسيوس الرابع كما كـان لقبـه، وحماته من اللاتين مكروهين ومحتقرين من الشعب. وفي شباط 1204 مـيلادي أسقط الإمبراطوران الشريكان بثورة قامت في القصر وتحدت الـصليبيين، فقـام هؤلاء بالهجوم على المدينة وتم احتلالها في 12 نيسان 1204 ميلادي وأسـلمت لنهب لا يرحم.

وبعد أن نصب إمبراطور **وطريك** من اللاتين في القسطنطينية سيطرت مدينـة البندقية على معظم التجارة. وكثير من البارونات الفرنسية وجدوا إقطاعيات فـي شبه الجزيرة اليونانية. وأقام البيزنطيون تحديا لهـم إمبراطوريـات فـي نيكايـا وتربيزوند وحكما مطلقا في أبيروس في أوروبـا. واسـتردوا الـسيطرة علـى عاصمتهم القديمة في 1261 ميلادي= 660 هجري ولكن منذ ذلك الحين أخـذت سلطاتهم تتضاءل، وأصبح من المستحيل تحقيق أمل أوربـان الثـاني وأنوسـنت الثالث في إقامة كنيسة موحدة بعد أحداث 1204 ميلادي= 602 هجري بـالرغم من النجاح الظاهري. ولقد فضل اليونان الأرثوذكس فـي القـسطنطينية الحكـم العثماني المسلم على الخضوع للبابوية.[30]

لا يهتم المؤرخون العرب بهذه الحملة لأنها استهلكت نفسها قبل أن تعبر حدودهم، فالحملة الصليبية الرابعة انحرفت من الهجوم على سوريا إلى الهجوم على القسطنطينية. ووقعت القطيعة بين المذهب المسيحي الكاثوليكي اللاتيني، والمذهب اليوناني الأرثوذكسي. وتعلم أيضا مسيحيو الشرق بأن السماء لا تحابي طائفة أو مذهبا، وعاش المسيحيون الأرثوذكس والموحدون* في القدس وغيرها من عواصم المسلمين عن رضى تحت حكم الإسلام وفضلوهم على الصليبيين بعد تجاربهم المريرة الماضية. وما عاد الصليبيون يجدون بينهم نصيرا.

ومن وجهة نظر اقتصادية فإن المتنادين للحروب الصليبية بعد الحملة الثالثة أصبحوا يمولون الجيوش من ضرائب العشر التي فرضتها الكنيسة على عامة الناس وكانت تسميها "عشر صلاح الدين". وهذا العشر أصبح يدر على الكنيسة أموالا طائلة فكان من مصلحتها أن تستنفر الناس لاسترداد القدس. وبالرغم من جهود أنوسنت الثالث وخليفته أونوريوس الثالث اللذين كان حماسهما الديني لخيرات الشرق أكثر من تُقاهما فإن الجيوش التي اجتمعت لديهما للحملتين الرابعة ثم الخامسة لم تكونا على مستوى الهدف الذي رسم لها.

الحملة الصليبية الخامسة

كانت في البداية بقيادة **جون بريين** الذي سُمي ملكا للقدس، واتجهت الحملة نحو مصر وحاصرت دمياط في حزيران 1218 ميلادي=616 هجري على أمل مبادلتها بالقدس. وكان ذلك بعد موت العادل واستلام ابنه الكامل الحكم في مصر.

كان حصار دمياط طويلا ومريرا دام 17 شهرا وبقي الكامل قرابة عامين يحارب في الدلتا. وفقد أخيرا أمله بالنصر ورضي بتسليم مملكة القدس خلال هدنة سلمية من عشرة أعوام مقابل إخلاء الصليبيين لأرض مصر. ولكن الكاردينال بيلاجيوس موفد البابا الذي كان يأمل في احتلال القاهرة ومصر كلها رفض هذه الشروط، واحتل دمياط في 5 تشرين الثاني 1219 ميلادي= 617 هجري. وبقيت الحرب مستمرة في مصر 21 شهرا آخر. وأخيرا علق جيش بيلاجيوس بفيضان

* Monophysites: مذهب مسيحي يعتبر بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية بدل طبيعتين سماوية وبشرية كما تقرر في مؤتمر كالسدون عام 451 ميلادي واتبع هذا المذهب أرمن وأقباط وسوريون.

النيل وكانت خسارته فادحة فأسلم دمياط وكر راجعا إلى عكا. وكـان ذلـك فـي أغسطس 1221 ميلادي= 619 هجري وهكذا انتهت الحملة الخامسة التي كـادت تنجح بكارثة على الصليبيين.[31]

الحملة الصليبية السادسة

حمل الإمبراطور فريدريك الثاني ملك ألمانيا وصقلية الصليب دون أن يفعـل شيئا من أجل الحملة إلا ان يردد وعده بمناسبة تتـويج البابـا أونوريـوس لـه إمبراطورا عام 1220 ميلادي وكان فريدريك رجلا شكوكيا انتهازيا له مصالحه في صقلية ولومباردي بالإضافة إلى آراء أسـرته **هوهنـشتاوفن** عـن حقـوق الإمبراطور المقدسة مما جعله عنصرا خطيرا للغاية على البابوية. ونتيجـة لهـذا أراده البابا أونوريوس وخليفته جريجوري التاسع على الخروج من إيطاليا، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد زواجه من يولند ابنة جون بيين قائد الحملة الخامسة التي تعتبر نفسها وريثة عرش القدس، فأصبح مهتما بحملة صليبية.

شرع فريدريك بالإبحار في أيلول 1227 ميلادي= 625 هجري ولكنه عاد أدراجه على الفور متظاهرا بدوار البحر بينما أبحر أسطوله إلى عكا. ومـن أجـل هـذا حرمته الكنيسة. ومع ذلك ذهب إلى فلسطين واشترك بقليل من العمليات الحربية، واعتمد على كثير من الدبلوماسية والتفاوض حتى حصل على معاهدة مع السلطان المصري الكامل الذي كان في حرب مع ابن أخيه الناصر في دمـشق. وحـصل فريدريك فيها على هدنة عشرة أعوام تسترد فيها قواته سلميا طريق الحج: القدس وبيت لحم والناصرة وصيدا واللد. إنها نفس الشروط تقريبا التي عرضـت منـذ عشرة أعوام على الكاردينال بيلاجيوس ورفضها. لقد نددت البابويـة بفريـدريك وبالطريقة التي سلمت بها إليه القدس. فالمسلمون، كما ترى، يجـب أن يحـاربوا والقدس يجب أن تؤخذ عنوة لا بالمفاوضة. وبينما كـان فريـدريك فـي الأرض المقدسة قامت البابوية بحملة صليبية ضد خصومها في أوروبا وذبحتهم (ومـنهم أسرة هوهنشتاوفن عائلة فريدريك) وكانت نتيجة هذه المذابح أن فقد الناس الثقـة بالحركة الصليبية ودوافعها كلها.[32]

وفي السنوات التي تلت استرداد فريدريك للقدس أمضى الفرنجـة الـشرقيون أوقاتهم في حروب داخلية محمومة، وكانوا أحيانا يستعدون أحد الأطـراف علـى طرف آخر في الصراع القائم بين خلفاء صلاح الدين في مصر وفي دمشق مـن الأسرة الأيوبية.

سمح للاتين أن يسكنوا المدينة ويحصنوها وأُعطيت الحرية الدينية للطوائـف المسيحية والمسلمة. وكان المسيحيون يتعبدون في كنيسة الضريح المقدس بينمـا المسلمون يصلون ويعظون في مسجد الصخرة حيث أسرى النبي في رحلة ليليـة إلى السماء. وساء رجال الكنيسة هذا التسامح المجال بالعار، وطـرد المـسلمون الذين أصبحوا ضعافا في المدينة بالتدريج وكل عملية صليبية كانـت تـتم بـدون إهراق دم، وأعيد بناء الكنائس وخلال خمسة عشر عاما ازداد عدد اللاتـين فـي القدس عن ستة آلاف. وانتهى هذا السلام والازدهار اللذان كانا حـصيلة اتفاقيـة فريدريك الذي اعتُبر عدوا للكنيسة، باقتحام الخوارزمية الهاربين من فتك المغول. هؤلاء الرعاة الذين انصبوا كالليل الجارف على سوريا وفلسطين وما نجح أحد في صدهم. وفي معركة واحدة أبادوا القوات العسكرية للفرنج ونهبوا المدينة وانتهكوا قداسة الضريح حتى أن اللاتين اعترفوا وندموا على تواضع ونظام خصومهم من القوات الكردية والتركية.[33]

اشترى السلطان الصالح نجم الدين أيوب وهو ابن الكامل كثيـرا مـن فلـول الهجرات الخوارزمية والقفقاسية السنّية المذهب وعزز بهؤلاء المماليـك جيـشه، بينما كانت الهجرات الشيعية من الدولة الإسماعيلية يلتحق أفرادها بأبناء مـذهبهم في الجبال.

وعزم السلطان الصالح وقد قوي جيشه على طرد الـصليبيين مـن المنطقـة، واسترد القدس ومعظم الممتلكات الفرنجية في فلسطين والشام واستولى على دمشق وكان ذلك عام 1244 ميلادي= 643 هجري

الحملة الصليبية السابعة

إن المثالية المسيحية وخوف الموت من المرض دفعت لويس التاسع ملك فرنسا أن يحمل الصليب في 1244 ميلادي ويستعد للحملة والانطلاق. كانت الأحـداث

الأولى للحملة الصليبية السابعة تشبه الخامسة إلى حد بعيد. فقد عزم لويس على مهاجمة دمياط آملا أن يستبدلها بالقدس. وكان الملك الصالح على فراش الموت، ودخل لويس المدينة في 1249 ميلادي= 648 هجري واحتلها دون قتال. ثم اقترف خطيئة مميتة بالتقدم نحو القاهرة في فصل يفيض فيه النيل. وأهلكت الحمى جيش الصليبيين وهم يخوضون في أقنية الري الفائضة. وقطعت قوات المسلمين خط اتصال الفرنج وأُبيد جيشهم تماما، وأُسر لويس في نيسان 1250 ميلادي= 646 هجري ففدى نفسه وكثيرا ممن معه من فرسانه بمبالغ طائلة وبتسليم دمياط للمسلمين في أيار 1250 ميلادي.

وبقي لويس في فلسطين مع عدد من أتباعه لمدة أربع سنوات أخرى آملا باسترداد القدس.

أما على الساحة المصرية فلقد استُدعي **توارنشاه** ابن الصالح من العراق ليخلف أباه، ولكن هذا الشاب برهن على عدم كفاءته للحكم وقلة لباقته إذ أغضب حرس أبيه من المماليك فقضوا عليه في 30 نيسان 1250 ميلادي ونشأ وضع فريد من نوعه عندما أصبحت **شجر الدر** أرملة الصالح، المملوكة التركمانية، سلطانة ونقشت عل الوثائق والنقود لقبها "ملكة المسلمين " واعترفت مصر بها، ولكن الأمراء السوريين الأيوبيين رفضوا طاعتها. ووقف الخليفة العباسي إلى جانب السوريين وطلب من أمراء مصر أن يختاروا رجلا في مكانها. وعين أمراء مصر واحدا منهم هو **عز الدين أيبك** قائدا عاما للجيش فتزوج على التو شجر الدر. وانتخبوا لتهدئة الأيوبيين السوريين الذين يخشى جانبهم " موسى " وهو من الفرع السوري للعائلة ليكون مشاركا للسلطان، وظهر اسمه على الوثائق والنقود، ولكن أيبك كان هو الحاكم الفعال.

وحاول لويس أن يسترد القدس بالوقوف في صف أيبك ضد الناصر الأيوبي الذي يحكم حلب والشام. فوعده أيبك ولكنه لم يسلمه إياها أبدا. وحاول لويس أيضا أن يحالف الحشاشين والمغول وكلاهما عدو للخلافة العباسية في بغداد، ولكن لم ينتج عن هذه المحاولات شيء. كان لديه ما يبرر تصرفه في محالفة المغول لأن التأثير المسيحي النسطوري كان أثناءها قويا في بلاط" **مونكا** " الخان الأكبر في قراقوم

في منغوليا. وأخيرا أمل لويس بنجدة تأتيه من فرنسا أو من البابوية ولكن لم ينجده أحد (كان البابا أنوسنت الرابع يقوم بحملة صليبية ضد ابن فريدريك الثاني، الملك الألماني كونراد الرابع) وعندما عاد لويس أخيرا إلى فرنسا في 1254 مـيلادي= 653 هجري بدا للكثيرين أن فشله هو برهان على عدم اكتراث الله بالصليبيين.[34]

كشفت إدارة أيبك عن طاقة معينة ولكن كانت تعوزه الصفات العليا للقيادة فـي ظروف المماليك. وعادى الأمراء المماليك وقتل في 1254 ميلادي= 653 هجري قائدا كان قد قمع بنجاح ثورة في مصر الوسطى. وهرب كثير من المماليك بينهم سلطان المستقبل " بيبرس إلى سوريا بسبب طغيانه. ولاقى أيبك حتفـه بمـؤامرة دبرتها شجر الدر وقد استبدت بها الغيرة في 18 أيلـول 1257 مـيلادي= 656 هجري إذ علمت بنيته في الزواج من أميرة أيوبية. ولقيت بدورها عقابها على يد زوجة أيبك الأولى وجواريها اللواتي ضربنها حتى الموت.

لم يكد العالم الإسلامي يتخلص من الحملات الصليبية حتى كان له بالمرصـاد عدو وثني يجتاح العالم كالعاصفة مدمرا أمامه كل شيء.

المغول والمماليك

بالرغم أن **جنكيزخان** كان يفخر بأنه لا يعبد إلا السماء الزرقاء وأنه يتـسامح بممارسة جميع الأديان بالنسبة للآخرين، إلا أن المغول كانوا في الأصل **شامانيين** يعبدون الأرواح الموجودة في ظواهر الطبيعة، كالجبـال والغابـات والـصخور والريح، وكوسيط بين هذه القوى الطبيعية وبين الإنـسان يقـف الـشامان وهـي شخصية مساوية لطبيب أو ساحر يمارس العلاج. وعمل الشامان هو أن يؤثر في القوى الطبيعية بسحر بدائي مصمم لتخفيف المرض، وبرفـاه يجعـل الـرحلات ميمونة والأعراس محظوظة، ويكون حاضرا كذلك ليتعهد الولادات والوفيات.

إن المسيحية **النسطورية** كانت معروفة بين بعض المغول في القـرن الثالـث عشر ميلادي ولكن ما لبثت ان تلاشت لتحل محلها **البونية.**

في 1255 ميلادي= 654 هجري بدأ **هولاكو** في غزو بلاد المسلمين. وبعد أن دمر مقاومة طائفة الحشاشين الإسماعيلية وخرب حصونهم ونهبهـا تقـدم نحـو

العراق إلى بغداد عاصمة الخلافة. وكان عليها **المستعصم بـ**الله آخـر الخلفـاء العباسيين، فسقطت بغداد وقتل المستعصم في يناير 1256 ميلادي= 657 هجري.

يقول المؤرخ ابن طباطبا وهو شريف علوي: "كان المستعصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطـا مليحا وكان سهل الأخلاق خفيف الوطأة إلا أنّه كان مستضعف الـرأي ضـعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ولا مطّلـع على حقائق الأمور. وكان يقضي أكثر وقته بـسماع الأغـاني والتفـرج علـى المساخرة وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبيـر فائـدة. وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الـدين محمد بن العلقمي فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفـوف اليـد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء."

والعلقمي هو الرجل الذي يتهمه المؤرخون بأنه كاتب **هولاكو** يحرضه علـى قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسـية ولا يهمـه بعـد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته.

إن أهل السنّة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كـانوا فـي نـزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلـة عـن المصالح. وكان وزير المستعصم شيعيا فكان يسوؤه ما يلقاه أهـل مذهبـه مـن اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر. وحصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلّة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قـتلهم ونهب دورهم. وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة. وينقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمي إلى وزير إربل منهـا أنه قد نُهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بشخص من غزية.

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي. قال في تاريخه: وقد نسبه الناس إلى أنه خامر* وليس ذلك بصحيح. ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلّم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه.

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد ونزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يصد به ذلك السيل الجارف واكتفى بإقفال الأبواب فجد المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام. وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاكو فأمره هولاكو أن ينزل باب كلواذي أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة التي كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدم بإحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلئ ودررا معبأة في أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه.

وفي رابع عشر من صفر سنة 656 هجري= 1258 ميلادي رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة، وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذي وبهذا القتل كُسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت 524 سنة. أما بغداد دار الخلافة فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغول جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن فني أكثر أهلها[35]

كان لهذه الأحداث تأثير بعيد المدى على الوضع الديني في الشرق الأدنى فالمسيحيون والشيعة رحبوا بالمغول لأنهم معادون للخلافة السنية. وفي بلاد مثل سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى أمل المسيحيون بالتقدم على يد هولاكو والذي اعتبروه حاميا لهم ضد الحكام المسلمين باعتبار أن زوجته مسيحية نسطورية.

* حاقد، مخاتل.

وفي 1259 ميلادي= 658 هجري تحركت جيوش هولاكو إلى سوريا واحتلت دمشق وحلب ووصلت شواطئ البحر المتوسط[36] وبدا أن الطريق إلى مصر مفتوح ولكن في 1260 ميلادي= 659 هجري استطاع المماليك أن يلحقوا هزيمة ساحقة بالمغول. وتخلصت مصر وانسد على المغول طريق التوسع.

إن **حاطون الأول** 1226- 1269 ميلادي= 624- 668 هجري أراد أن يستخدم المغول ضد التهديد المتعاظم للمماليك في مصر، وكان حاضرا مع الجيش المغولي الذي دخل حلب ودمشق في 1260 ميلادي= 659 هجري[37]

كان حاطون ملك أرمينيا الصغرى (كيليكيا) وهي المنطقة الجنوبية من تركيا التي هاجر إليها الأرمن من بلادهم الأم وأسسوا فيها مستعمرات بعد معركة ملاذبكر أم منزيكرت عام 1071 ميلادي= 464 هجري عندما سقطت مدن أرمينيا بيد السلاجقة الأتراك. وكان المهاجرون الأرمن يلتحقون بجيوش غيرهم للإرتزاق. ولقد التحق منهم كثيرون بالجيوش البيزنطية وأصبحوا أمراء عسكريين عن هذا الطريق ثم وسعوا ممتلكاتهم على حساب البيزنطيين حتى أصبح منهم ملوك، كما أنهم خدموا في قوات الفاطميين ومنهم من خدم في جيوش المسلمين في حروبهم مع الروم. ولما انتهى أمر الصليبيين أو كاد أرادوا مساعدة هولاكو ليكون لهم به قوة ونفوذ. كانت أرمينيا الكبرى قد وقعت بأيدي المغول بين 1236- 1242 ميلادي فحسب المهاجرون في أرمينيا الصغرى بأنهم يكونون حماة لهم من مماليك مصر إن تعاونوا معهم. ولكن هذا التعاون كلفهم غاليا إذ هزموا مع المغول شر هزيمة.

عين جالوت والمماليك

ينقسم سلاطين المماليك في مصر إلى فئتين: **البحرية والبرجية**. والمماليك البحرية هم حرس السلطان نجم الدين أيوب وكانوا يقيمون في ثكنات في جزيرة الروضة على النهر خارج القاهرة. ومعظم السلاطين البحرية هم من الأتراك (القفقاس الذين اشتراهم نجم الدين أيوب وعزز بهم جيشه) وبعد موت أيبك نصب المظفر سيف الدين قطز نفسه ملكا بعد أن أقال ابن أيبك واستلم السلطة. ولما نفذ جيش هولاكو إلى شمالي سوريا طرد جميع الأمراء الأيوبيين ماعدا واحدا. وكان

قطز ينفر من هؤلاء الأمراء الذين يعتبرون أنفسهم الورثاء الـشرعيين للـسلطنة المصرية. واستطاع **قطز** أن يكسر شوكة المغول وسمعتهم بأنهم جـيش لا يقهـر عندما نازل جيش هولاكو الذي كان بإمرة قائده كتيوفا المسيحي النسطوري فـي **عين جالوت** قرب الناصرة في أيلول 1260 ميلادي= 659 هجري. ولكن **بيبرس** القائد المملوكي الذي هرب من غضب أيبك في القاهرة وحارب في عين جـالوت اصطدم مع قطز فقتله وتولى عرش مصر واتخذ لقب الملك الزاهر ركـن الـدين بيبرس. وكان أعظم السلاطين البحرية كفاءة. وعمل على تنصيب خلفـاء بغـداد اللاجئين إلى مصر كخلفاء ظل في القاهرة عام 1261 مـيلادي= 660 هجـري وأحاط حكمه بهالة من الشرعية. فواقع حرمان الخلفاء العباسيين مدة طويلة مـن السلطة السياسية كان أقل أهمية عند بيبرس من سـلطتهم الرمزيـة علـى رأس المجتمع الإسلامي. وبقي الحكام المماليك في مصر يساندون هذا النظام حتى نهاية حكمهم.

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة في العالم لأنهـا أنقـذت لا المماليك فقط ولكن أنقذت الإسلام في الشرق الأوسط. وأضعفت الفرصة الضئيلة في أن يتبنى المغول المسيحية كما أمل اللاتين. ولم يلبث **المغول** أن دخلوا الإسلام على **المذهب الشيعي.**

وتشير معركة عين جالوت إلى بداية تقهقر سلطة اللاتين على طول شـواطئ فلسطين وسوريا. لأن معظم هذه البلدان الساحلية، ما عدا عكا، سـاندت كتيوغـا القائد المغولي المسيحي النسطوري. ولما أصبح بيبرس سلطانا شن حربا منظمـة على جميع هذه البلدان بما فيها عكا. واستولى على قيسارية وحيفا وأرسوف فـي 1265 ميلادي= 664 هجري وقلعة صفد في 1266 ميلادي= 665 هجري. ويافا وقصر بلفورت (قلعة الشقيف) وأنطاكية في 1268 ميلادي= 667 هجري*

الحملة الصليبية الثامنة

* مملكة انطاكيا اللاتينية بقيت من 1198– 1268م على الخريطة في بحث الحروب الصليبية في الموسوعة البريطانية ص 831 مجلد 6 1965

قرر لويس في 1268 ميلادي= 667 هجري تسيير حملة جديدة هي الثامنة. وقد أقلق الأمر بيبرس، ولكن الحملة انحرفت إلى تونس عام 1270 ميلادي 669 هجري. بسبب خداع شارل أنجو ملك صقلية، وأخي لويس الذي كان عدوا للبيزنطيين ولم يرغب أن تذهب الحملة إلى الضريح المقدس وتنشغل عن الحرب ضد اليونان. ومات لويس في تونس في 1270 ميلادي وأصبح بيبرس حرا في أن يواصل هجماته.

سقوط الحصون الأخيرة للاتين (من 1271- 1303 ميلادي= 670- 704 هجري)

استولى بيبرس على آخر ثلاثة حصون كانت بأيدي الفرنج: صافيتا وقلعة الحصن (بين صافيتا وحمص) ومونتفورت (قلعة الشقيف) واستولى قلاوون الذي خلف بيبرس على طرابلس في 1289 ميلادي= 688 هجري. بناء على طلب المدينة لتخلصها من تجار جنوة. وابنه السلطان أشرف استرد عكا في 1291 ميلادي= 690 هجري. بعد أن قام جماعة من أهل البندقية قدموا حديثا إلى البلد بقتل تجار مسلمين في الشوارع. ولم تلبث باقي الحصون الصليبية الرئيسية أن سقطت: صور وبيروت وحيفا وطرطوس وعتليت (قصر بيلبرين) بدون مقاومة، وصيدا بقليل من المقاومة. وانكمش التمبلار في جزيرة أرواد الصغيرة على بعد ميلين من طرطوس حتى 1303 ميلادي= 704 هجري[38]

ومرة أخرى هاجم المغول سوريا في غزوة رابعة وهزموا قرب دمشق عام 1303 ميلادي وبعد هزيمتهم كانوا غير قادرين وغير راغبين أن يحموا أرمينيا الصغرى من المماليك الذين استولوا على خليج اسكندرون ودمروا الميناء في 1323 ميلادي=724 هجري.

كانت مساندة الشيعة في سوريا للمغول سببا للتنكيل بهم من قبل مماليك مصر. وقد جاء في كتاب "العلويون من هم وأين هم "[39] ما يلي:

أما الهجرة الخامسة فكانت في سنة 1305 ميلادي عندما أمر السلطان محمد بن قلاوون سلطان مصر (من سلاطين المماليك البحرية) رجاله في سوريا بتسيير حملة عسكرية إلى جبال كسروان في لبنان، للمرة الثالثة، لإبادة الشيعة هناك، إذ

كانوا أصحاب البلاد آنئذ. فسير نائب دمشق جمال الدين آقسن 50 ألفا من الجنود، ثم لحق بهم، وسار إلى هناك أيضا، سيف الدين استدمر نائب طرابلس، وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نائب صفد، فقطعوا الكروم وخربوا البيوت وقتلوا الألوف. وكان من الدروز عشرة آلاف محارب بقيادة عشرة من أمرائهم، فكُسروا في تلك المعركة، واحتموا في غار غربي كسروان، فأمر نائب دمشق آقسن ببناء سد من الحجر والكلس على مدخل الغار فبناه جنوده، وهالوا عليه التراب، وجعل الأمير قطلوبك حارسا عليهم مدة 40 يوما، حتى هلكوا داخل الغار[40]

ومن جملة من فتك بهم، النصيرية الذين كانوا شمال لبنان، ولا سيما في القنيطرة والعاقورة ونواحي البترون وعكا والضنية ثم امتدوا إلى كسروان قبل سنة 1305 ميلادي وكانوا أشداء يساعدون إخوانهم في وادي التيم ومرج عيون.

إن الذين تخلصوا من الموت من هؤلاء، رحلوا إلى الشمال، أي إلى جهات اللاذقية وأنطاكية واعتصموا في جبالهم، وبقي قليل منهم في لبنان.[41]

أما المتاولة فقد تشتتوا في أطراف لبنان.

آخر الحروب الصليبية

لم يتوقف البابوات عن تحريض الناس على شن حملات صليبية ضد المسلمين، ولكن تأثيرهم كان يضعف يوما بعد يوم وقد فقدت الصليبية بريقها القديم وانطفأت، ومع ذلك حدث أن سيرت عدة حملات نهبت واحدة منها مدينة الإسكندرية في مصر عام 1365 ميلادي=766 هجري وتوجهت أخرى إلى الأراضي المقدسة في فترة صعود الأتراك العثمانيين. وشنت هجوما على سميرنا في 1344 ميلادي وهجومين على البلقان وانتهت هذه الغزوات بهزيمة عند نيكوبول في 1396 ميلادي=797 هجري وعند قارنا في 1444 ميلادي ولكن بقيت رودس قاعدة لفرسان سانت جون الاسبتار حتى 1522 ميلادي وقبرص كمملكة فرنجية حتى 1489 ميلادي وكمخفر أمامي لجنوة حتى 1571 ميلادي واحتفظت بعدائها نحو مسلمي سوريا ومصر حيا.

إن الأمير هنري الملاح وكريستوفر كولمبس وألفونس البوكرك كانوا يزعمون بأن غرض رحلاتهم الاستكشافية كانت للإحاطة بالمسلمين من شرقي المتوسط.

كان الغربيون الأوروبيون يحبذون في البداية فكـرة الحـرب المقدسـة، ولكـن الحروب الداخلية والانشقاقات الدينية ونشوء القوميات الملكية وانتـشار التجـارة وإلغاء الإقطاع والاكتشافات الجغرافية وعصر النهضة والإصلاح كلها سـاهمت في تقليص النوازع الصليبية وتركها تذوي.

التشيّع أثناء حكم الصفويين

إن الشاه **إسماعيل الأول** مؤسس الأسرة **الصفوية** في إيران كان السادس فـي خط ذرية الشيخ صافي الدين 1252- 1334 ميلادي=651- 713 هجري. مـن أردبيل الذي أسس طريقة صوفية هناك. وهو يدعي الانتساب إلى الرسول محمـد من خلال الإمام موسى الكاظم، سابع الأئمة الشيعية، والشيخ صافي ومن خلفه من ذريته كانوا أئمة الطريقة الصوفية في أردبيل. وكان لهم تأثير ديني وشعبي أثـار مخاوف جاهنشاه حاكم الغنة السوداء الذي كان يحكم أواسط وشمال غربي إيـران من 1427-1467 ميلادي.

كان **الشيخ صافي** وابنه وخليفته **الشيخ صدر الدين** كلاهما على مذهب السنة، ولكن ابن صدر الدين **الخواجا عليّ** الذي أصبح زعيم الطريقة في 1399 ميلادي تبنّى المذهب الشيعي بشكله المعتدل. وغدا خليفة الشيخ إبراهيم على مذهب مفعـم بآراء الشيعة المتطرفة، وكذلك ابنه **جنيد** الذي هلك وهو يحارب سنّة داغستان في 1455 ميلادي. إن **الشيخ حيدر** الذي أصبح على رأس الطريقة بعد موت والـده أعطى أتباعه الذين كانوا من الشيعة التركمان طواقي حمراء فيهـا اثنـا عـشر تجويفا (بعدد أئمة الشيعة الإمامية) ومن ثم أصبح يطلق عليهم اسم **الكزلباش** (أي أصحاب الرؤوس الحمراء). وتزوج الشيخ حيدر بمارتا ابنة حاكم الغنمة البيضاء أوزون حسن وزوجته المسيحية دسبينا كاترينا ابنة إمبراطور تربزوند (ترابزون) وأنجب حيدر من مارتا ثلاثة أبناء وابنة واحدة. وكان حيدر كوالده شيعيا محاربـا وقُتل في حرب ضد السنّة في 1488 ميلادي عندما كان ابنه إسماعيل في الـسنة الأولى من عمره. ولقد نجا إسماعيل وأخواه من ملاحقة خـصومهم فـي عـدة مناسبات، وقُتل الأخوان الأكبران أخيرا وبقي إسماعيل ليتزعم الطريقة الـصوفية

في أردبيل. ونال إسماعيل مساندة التركمان المحليين، ومساندة كثيرين من القبائل التي كانت كارهة لحكم الأتراك العثمانيين السنّة. وبمساعدة هـذه القبائـل احتـل تبريز وأصبح شاه أذربيجان في تموز 1501 ميلادي وما لبث بعد بضعة أعـوام أن سيطر على معظم فارس، ثم هاجم سنة أوزبكستان الذين احتلوا الشمال الشرقي من فارس وهزمهم في معركة كبيرة قرب مرف في 1510 ميلادي. وبالرغم من واقع كون كثيرين من رعاياه كانوا من السنة، فإن **شاه إسماعيل** حول معظمهـم إلى **المذهب الشيعي** الذي جعله دين الدولة. وكانت طموحاته الدينية لا تقف عنـد حد، مما أوقعه في صراع مع **السلطان سليم الأول** التركي وهو بـدوره طمـوح متعصب لمذهب السنّة.[42]

غزا إسماعيل الصفوي تركيا في 1501 ميلادي= 908 هجري يحدوه الحماس الديني لنشر التعاليم الشيعية. وحاول السلطان **بايزيد** وهو بطبعه محب للـسلام أن يتدبر الأمر بحلول سلمية. ولكنه لم يستطع أن يكبح ابنه السلطان سليم من محاربة الفرس. واستطاعت دعاية الشاه سليم أن ترسخ التعاليم الشيعية في تركيا. وبالرغم من القمع الدموي خلال حكم السلطان سليم الأول، والمرسـوم الجمهـوري عـام 1925 ميلادي بإلغاء طريقة الدراويش المنتمين إلى الكزلباش والطوائف الـشيعية الأخرى فإنهم بقوا حتى هذا اليوم. وكان على بايزيد أيضا أن يحـارب الجيـوش المصرية بقيادة المماليك السنّة الذين غزوا أضنة ويطاردهم من هناك.

استطاع السلطان سليم أن يكسب **الانكشارية** إلى صفه واعدا إياهم بالفتوحـات، وأجبر والده على أن يتخلى عن السلطنة. والتأثير السياسي للانكشارية يبـدأ منـذ ذاك العهد بمحاولة لإبادة الشيعة ليس فقط في تركيا ولكن في بلاد فـارس التـي كانت مركز هذه الدعوة. وفي 1514 ميلادي قضى على قوات شاه إسماعيل فـي شالديوان واحتل أذربيجان وكردستان. وكانت أهم فتوحاته سوريا ومصر اللتـان أضافهما إلى لإمبراطوريته بعد أن هزم المماليك فـي 1516 و 1517 مـيلادي وحسب أقوال المؤرخين الأتراك والغربيين أنه حصل على لقب الخلافة من آخـر خلفاء الظل العباسيين في مصر. وهناك مؤرخ معاصر هو حسن بن طولون وكان مملوكا معجبا بالسلطان سليم. كتب في مؤلفه " تاريخ مصر " يقول إن الـسلطان

سليم كان يريد أن يحقق وحدة إسلامية بالقوة وليس بادعاء لقب الخلافـة. جمـع علماء مصر وأشار إلى أن المماليك كانوا دائما يسعون ليكرسوا من قبل الخلفـاء، وتساءل إذا كان هذا ضروريا. فأعلن العلماء بأن السلطنة تعتمد على القوة وليس على مبايعة الخلفاء. وأرسل شريف مكة أبو البركة ابنه ومعـه مخلفـات أثريـة ومفاتيح الأماكن المقدسة إلى سليم. وبالرغم أن هذه هي رموز المبايعة بالخلافـة إلا أن سليما كان راغبا حقا بإلغائها. ولم يتجرأ أي سلطان على ادعـاء الخلافـة حتى عام 1774 ميلادي.[43]

إن هزيمة شاه إسماعيل الشيعي في شاليديران وغلبـة سـليم الأول الـسنّي، وفتوحاته في سوريا ومصر أدت إلى اضطهاد الشيعة الذين انتشرت بينهم الدعوة الصفوية في جنوب تركيا وهجرتهم إلى الجبال السورية وهي ما تسمى بـالهجرة السادسة.

كانت الهجرة السادسة على أثر انتصار ياور سلطان سليم التركي العثماني على الجيوش العربية، التي كانت بقيادة السلطان الغوري وسلطان مصر في مرج دابق سنة1516 ميلادي= 923 هجري إذ أن كثيرا من الشيعة، الذين كانوا في حلـب وأطرافها، هربوا إلى جبال اللاذقية لأن هذا السلطان فتك بمن تمكن منهم، كما أن بعض الجنود الذين كانوا تجمعوا من العرب في مرج دابق، وخاصة الذين رافقوا الغوري من مصر، لجأوا إلى تلك الجبال، وتكنوا بالمحـارزة نـسبة إلـى بنـي محرز.[44]

كان التشيع في القرن السادس عشر واسع النطاق. وكان تحولا من مذهب السنّة ضم كثيرا من الشعوب في فارس وأذربيجان وكردستان وأوزبكستان والتركمـان. أما في جنوب تركيا فقد يكون التشيع حدث بين شعوب هذه المنطقة الذين كانوا من اليونان والأرمن والتركمان واليعاقبة المسيحيين والموحدين، وكانوا على عداء مع الأتراك العثمانيين. وهذه هي المرحلة التي أصبح فيها التشيع يضم شعوبا عديـدة كانت قبل على مذاهب شتى..

* * *

المراجع

[1]-

Crusades V. 6 P. 828 (E. B. 1965)

[2]- تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان ج1 ص 404- 406

[3]-

Crusades , Ibid.

[4]-

Crusades, Ibid

[5]-

Armenia V. 2 P. 420- 421 (E. B. 1965)

[6]-

Crusades , Ibid

[7]-

Kurd V. 13 P. 513- 515 (E. B. 1965)

[8]- أبو الفدا، تقويم البلدان ص 399

[9]- الباهر ص 119- 120 والروضتين ج2 ص 329- 330، 536- 537

[10]- المصدر السابق، جاءت في كتاب صلاح الدين الأيوبي: بسام العسلي ص 43- 45

[11]- المصدر السابق: ص 45- 46

[12]- ابن الأثير: الكامل ج9 ص 85 جاءت في المصدر السابق: كتاب صلاح الدين الأيوبي ص 67- 68

[13]- تاريخ الحروب الصليبية: رنسيمن ستيفن ج2 ص 601- 603 جاءت في المصدر السابق ص 69، 70، 71

[14]- المصدر السابق ص 71- 72

[15]-

William of Tyre XX4. P.P. 945, 947

[16]- الكامل: ابن الأثير ج9 ص 96

[17]- الكامل ج9 ص 113

[18]-

Gibbon II Ch 59th P. 412

[19]- الكامل ج9 ص 126- 127

[20]- المصدر السابق في جيبون:

Gibbon II Ch 59th P. 412

[21]- الخطط ج 3 ص 4

[22]- تاريخ الحروب الصليبية ج2 ص 641 جاءت في كتاب صلاح الدين الأيوبي ص 119

[23]- الكامل: ج9 ص 132

[24]-

Gibbon II Ch 59 P 413

[25]- الكامل: ابن الأثير ج 9 ص 176-177، تاريخ الحروب الصليبية 731-743

[26]- مصدر سابق ص 413

[27]- أبو الفدا: مجلّد 3 ص 85

[28]-

Syria V. 21 P. 718 (E.B.) 1965

[29]-

Egypt V. 8 P. 59 (E.B.) 1965

[30]-

Crusades V. 6 P. 828 (E.B.) 1965

[31]-

Crusades V. 6 P. 828 (E.B.) 1965

[32]-

Egypt V. 8 P. 59 (E. B.) 1965

[33]-

Gibbon II Ch. 59th P. 419 (G.B. of the Western World)

[34]-

Crusades : Ibid
Egypt : Ibid

[35]- تاريخ الأمم الإسلامية: الخضري، مصدر سابق ص 654- 657

[36]-

Mongol V. 15 P. 718 E. B. 1965

[37]-

Armenia V. 2 P. 420 E. B.

[38]-

Crusades : Ibid

[39]- منير الشريف ص 53

[40]- عن كتاب الجامع المفصل للعلامة المطران دبس ص 222- 225 نقلا عن ابن الحريري وابن سباط.

[41]- المصدر نفسه عن دواني القطوف للمؤرخ عيسى اسكندر المعلوف ص 158

[42]-

Persian History V. 17 P. 577 (E. B.)

[43]-

Turkey V.22 P. 593 (E. B.)

[44]- العلويون من هم وأين هم: منير الشريف ص 54